صـخـــبٌ على حـــافةِ الفنـاء الجــزء الأول

تــأليـف

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

إهـــداء

أهدي هذا الكتاب ...

إلى خير خلق الله هدياً لكل حيران .

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إلى محمد بن عبد الله تاج الأنبياء والمرسلين .

المؤلِفْ

]

مقـــدمة

في ملحمة الضياع الكوني الماثلة لذوي البصائر من البشر والمتمثلة في الجنون الدموي الذي يجتاح العالم كوباء وتقف البشرية بخيارها من البشر عاجزة عن إيقافه، تبدو إرهاصات الفناء وإشاراته القوية ورغم الأحلام التي كانت تداعب مخيلة الحالمين من البشر والغارقين في فراديسهم التي صنعتها مخيلاتهم الرومانسية حول مستقبل البشرية خلال القرن الماضي وتحديداً عندما عاد الدفء ليخلف مناخ الصراع الدولي بين القطبين العملاقين، المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية لحلف الناتو والاتحاد السوفياتي السابق بقيادته لحلف وارسو والسباق التسليحي الرهيب والتركيز على إنتاج وتطوير أسلحة الفناء وجعلها أسرع إبادة للآخر تحت نظريات الردع الاستراتيجي وغرس الإحساس بالرعب في نفس الآخر إذا ما أقدم على حماقة عسكرية.

لكن هذا الدفء وانتعاش الآمال ببزوغ فجر القرن الجديد الحادي والعشرين ليكون قرناً للسلام ما لبث أن تلاشى وتبخر تحت وطأة الإحساس بالقوة الطاغية وضرورة تحقيق الأجندة الرأسمالية الليبرالية لطموحاتها التي لا حدود لها في امتلاك ناصية الهيمنة وشمولية القوة والإرادة فبدأ القرن دموياً وقاسياً في بزوغه وفي إطلالته وبدايته وعلى قارعته شهد العالم ضربة الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك والهجوم على مقر وزارة الدفاع الأميركية (البنتاجون)، الأمر الذي فتح أبواب الجحيم على منطقتنا العربية وشعوبنا الإسلامية وتوجهت إلينا أصابع الاتهام بالإشارة وكان الدين الإسلامي محور الاتهام في قضية لا ناقة له فيها ولا جمل وتحول الأمر مع الهجوم الإعلامي الجارف الذي رافقه هجوماً عسكرياً وأمنياً استهدف دولاً وشعوباً بأكملها ليسقط ملايين الضحايا وملايين البشر وتتلاشى أنظمة سياسية وتتبخر ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فمع مرافقة القصف الإعلامي المتواصل عبر العالم وبتأثير الماكينة الإعلامية الهائلة التي يملكها ويتحكم بها المستفيدون أصبح المسلم في أي مكان بالعالم إنساناً مشبوهاً ومشتبهاً به ومحل اتهام على مدار الساعة، بل وتحول الأمر إلى ما يشبه الحصار على المسلمين وما يشبه العزلة لهم في المجتمعات الغربية.

ومن كل هذا وذاك بدأت تنفتح ثغرات داخل المنظومة القيمية الإسلامية نفسها بفعل هذا النحيب الإعلامي المتواصل وجلد الذات بلا ذنب أو جريرة سوى أحداث دموية وإرهاب صنعه الآخر بامتياز عبر صناعة رموزه، بل وتدور أسئلة كبيرة وعلامات استفهام ضخمة حول تلك الأحداث الإرهابية في سبتمبر من خطط لها ومن نفذ ومن استفاد من طرحها على البساط الإعلامي، ساسة ومحققون غربيون شككوا بالدولة في علاقة الإسلام بها والرموز المعروفة إعلامياً والتي تعيش في عزلة دائمة في مكان ما في جبال هندوكوش الوعرة، والغريب في الأمر أن هذه الرموز الإرهابية كانت مرات ومرات تحت أيدي الأمن ورجال المخابرات الذين سعوا بلا جدوى للحصول على إذن قياداتهم العليا لقتلهم أو القبض عليهم وهذا ثابت من خلال حديث رجل المخابرات الأميركي قائد قوة المطاردة السابق والذي أعلنها في لقائه مع السيد أحمد منصور على شاشة (الجزيرة) على مرأى ومسمع عشرات الملايين من المشاهدين إلا أن طلباتهم قوبلت بالرفض أو الصمت، وهذا الأمر أضاف إلى ما سبق علامات استفهام ضخمة حول هذا الضجيج الدموي العبثي ضد أمة بعثت عقل البشرية بلا مبالغة ثلاث مرات عبر التاريخ وأسست بلا جدال حضارة إنسانية دفعت البشرية من خانة الهمجية والتوحش والتخلف إلى الجانب الإنساني العظيم، بل لا أبالغ إذا قلت أن هذه الأمة وشعوبها العظيمة التي صنعت حضارات أسست لتاريخ بشري وعلوم إنسانية وحملته رسالات السماء إلى أركان الدنيا بمفاهيمها ومضامينها القائمة على الرحمة والعدل والمساواة والتآخي والقيم الإنسانية العليا إلى أركان الأرض الأربعة وخاصة هذا الدين العظيم الذي يتعرض إلى حرب شعواء ومحاولات تشويه مستعرة متمثلة في تشويه قيمه والإساءة إلى محمد نبي الإسلام عليه صلاة الله وسلامه بشكل يومي بشيطانية هذا الاتجاه الشرير ويرمز إلى إرهاصات تنبئ بشر مستطير يتغي فيها العالم والبشرية قاطبة.

وعلينا وعلى الشرفاء الذين في هذا العالم أن نبذل قصارى جهدنا واستطاعتنا لإصلاح ما خربته الأيدي الآثمة والنفوس الشريرة التي تحاول القضاء على مكامن الجمال والرحمة في العالم لتحل محلها منظومات القبح والحيوانية الهمجية وسيادة عدل القوة لا قوة العدل.

محمد عبدالعزيز أحمد الباكر

الفصل الأول

لم يكن البابليون والآشوريون والفينيقيون والفراعنة الذين بنوا أعظم حضارات إنسانية في مساحة لا تتجاوز مساحتها ألف وخمسمائة كيلومتر طولاً ومثلها عرضاً قبل آلاف السنين يعلمون أنهم سيغيرون وجه التاريخ في مستقبل البشرية كلها حين أشع الأوجارثيون الورثة الشرعيون لهذه الحضارات بأنوارهم على أوروبا ويغزون أول حضارة نشأت على الساحل الأوروبي للمتوسط وهي الحضارة الهيليبية (اليونانية القديمة) التي انتجت علومها وفكرها ليرثها الرومان ويرتدوا غزاة وفاتحين للبلاد التي أنتجت الحضارات الإنسانية الأم.

وليس من اليسير التعامل مع دور اللغة في صنع الحضارة أو الاستهانة بأهميتها البالغة في صنع وتطوير العقل الإنساني والارتقاء بفكره حين نشير بثقة إلى الدور الحضاري العظيم الذي لعبته شعوب منطقتنا العربية التي أنتجت تلك الحضارات العظيمة التي فتحت آفاق الفكر الإنساني وهيأت للبشرية مسارها الإنساني، فها هي أوروبا تتعلم أولى لغاتها وكل لغاتها التي صنعتها ورفدتها وطورتها اللغات القديمة وتكفلت الأوجارثية الفينيقية بإهدائها إلى أوروبا لتنتج حضارتيها اليتيمتين المتعاقبتين اليونانية ووريثتها الرومانية ومن المعروف علمياً وتاريخياً أن كل اللغات الأوروبية هي نتاج اللغات الآشورية والفينيقية والهيروغليفية التي اختصرتها الفينيقية إلى اللغة الأوجارثية في مملكة فوينيسيا على سواحل الشام ومن ثم أنتجت لغات أوروبا.

كانت تلك الأفكار تدور في عقلي وأنا أتابع قيادة سيارتي على كورنيش الدوحة ليلاً متوجهاً إلى فندق الماريوت حيث أتناول قهوتي مع بعض أصدقائي كالمعتاد على وقع الموسيقى الرومانسية التي تعزفها على البيانو والكمان عازفتان من أوكرانيا. كانت الدوحة بكورنيشها وأضوائها المتلألئة وأبراجها العالية المضاءة تمثل عالماً سحرياً تلامس روعته النفس وترفدها بمعان جمالية خلابة وهي المدينة العربية التي تستنطق التاريخ الحضاري الموغل في القدم لمنطقة التماس بين الحضارات العظيمة التي نبتت وبزغت منذ فجر التاريخ الإنساني، كنت أتأمل وأنا أقود سيارتي، هذا التاريخ وأستحضر حضارات المنطقة القديمة التي سبقت كل الحضارات وأنشأت مجتمعات إنسانية أهدت معارفها وعلومها للبشرية بأسرها، فإلى الشمال الشرقي نشأت السومرية التي رفدت الحضارة الهندية القديمة وتبعتها الآشورية والفينيقية، وإلى الشمال الغربي نشأت حضارة مصر القديمة، وإلى الشرق المباشر القريب نشأت على الضفة الأخرى للخليج الحضارة الفارسية وتناغمت تلك الحضارات العظيمة وتفاعلت لتنتج الإنسان في هذا العالم ولتعلمه كيف يتكلم لغة ويفكر ويطور الحياة الإنسانية وكنت أشعر برضا بالغ حين تذكرت علماء هارفارد على وثائقية الجزيرة الفضائية وهم يعترفون بأن حضارات تلك المنطقة العظيمة ومعارفها وعلومها هي التي رفدت وغذت قيام الحضارة الهيلينية القديمة (اليونانية)، بل والمدهش أنهم قالوا إن كل اللغات الأوروبية منشأها وأصلها وجذورها اللغات السومرية والفينيقية والهيروغليفية التي امتزجت في أوجاريث على سواحل الشام وانتقلت لتضيء أوروبا وتصنع إنسانها واللغة كما هو معروف هي أساس الفكر الإنساني ونافذته العظيمة.

كنت أفكر في كل هذا وأنا أعيش عالما سحريا بين ما تراه عيناي وما يدور في عقلي في أخروجة إنسانية راقية تثير في القلب مشاعر الرضا وقليلاً من الحزن والكثير من الأمل.

ترجلت من سيارتي ودلفت إلى الردهة الواسعة محيياً طواقم الأمن والعاملين في طريقي ومتوجهاً إلى حيث يجلس الأصدقاء.

تطور حوارنا الذي أدرت دفته بناء على ما دار في عقلي وأنا أقود سيارتي لكنه في حقيقة الأمر كان قد أخذ بعداً جديداً في تفكيري حين شاهدت وثائقية الجزيرة الفضائية تعرض فيلماً تحدث فيه علماء التاريخ والآثار في جامعة هارفارد العريقة وهم يستعرضون كيف غزت الحضارات القديمة في الشام والعراق ومصر الحضارة اليونانية وجعلوا الأوروبيين يمتلكون لغات يتحدثون ويفكرون بها، مشيرين بذلك إلى أوجاريث ومملكة فوينسيا على سواحل لبنان وكان أحد الأصدقاء وهو مهندس مدني ديكور إيطالي الجنسية من أصل عربي يتحدث عن مدينة البندقية الإيطالية التي تسبح فوق المياه وتحيطها القنوات المائية من كل جانب وكيف أن أحد علماء الهندسة المدنية الإيطالية قد كلف بوضع تصور لإنقاذ البندقية باعتبارها معلماً إيطالياً عظيماً وأحد أعظم آثار الحضارة الرومانية.

تحدث الصديق الإيطالي وأنا منصت بانتباه إلى توصل هذا العالم إلى حقيقة فنية حول أصل أساسات مدينة البندقية التي حملت مفاجأة جعلت الدوائر الثقافية والآثارية الإيطالية توقف بحث الرجل وتتجاهله وتستبعده من العمل في هذا المجال بسبب تقريره الفني الذي يشير إلى أن النظام الهندسي لأساسات المدينة هو نظام هندسي يتبع المدرسة الفينيقية وفنون البناء العربية وأقصد بها فنون البناء في النظم الهندسية التي كانت سائدة في منطقتنا العربية القديمة وتحديداً في بلاد الشام ومصر القديمة وكان الأمر منطقياً جداً، وقلت لصديقي متسائلاً: ألم تسبق الحضارات القديمة في بلادنا، سوريا والعراق ومصر الحضارة اليونانية؟ أجاب صديقي: نعم بالتأكيد.

فقلت له ألم تكن الحضارة الهيلينية (اليونانية) هي الحضارة الوحيدة واليتيمة التي نشأت على الشاطئ الآخر للمتوسط في أوروبا وورثها الرومان بعد ذلك.

واستطردت قائلاً: إن هيرودوت أبو التاريخ وهو يوناني من العصور القديمة أشار في كتاباته إلى أن الحضارة الهيلينية ولدت من رحم الحضارات العربية القديمة وكانت تستقي علومها ومعارفها من الحضارات البابلية والفينيقية والفرعونية في العراق والشام ومصر.
ونعلم أن الإسكندر الأكبر المقدوني قد فتح هذه البلاد واجتاح المنطقة وصولاً إلى الهند ومن المعروف أن الحضارات والثقافات تنتقل بإشعاعاتها إلى أقصى الأرض مع انتقال الناس والتجارة وغيرها وبالتالي فإن انتقال الفنيين والمعماريين والبنائين وغيرهم من ذوي الخبرات أمر مؤكد بحكم سقوط تلك البلاد ذات الحضارات العريقة في قبضة فاتح يهمه أن يبني بلده ويطورها ليزيدها قوة كالإسكندر الأكبر بذكائه ونبوغه وفهمه.
قال صديقي الإيطالي انظر إلى قنوات فينيسيا، خاصة الجسور القوسية التي ينحني راكب الجندول وهو يعبر من أسفلها، هذه القناطر المقوسة إلى أعلى طرازها وتصميمها وهندستها عربية تعود إلى الفنون الهندسية في بناء مثل هذه القناطر في حضاراتنا القديمة الفينيقية والفرعونية وهي ليست سهلة البناء لأن لها مفتاحاً وقفل المفتاح يبدأ من قاعدة البناء ويعلو مقوساً حتى يصل إلى القفل وهي نقطة المنتصف في قمة القبو ولها حسابات هندسية دقيقة جداً في قياسات حجارة البناء لا تكتمل بدونها.
كنت مندهشاً جداً وأنا أستمع لهذا الشرح الهندسي الذي يثبت دور حضاراتنا القديمة في بناء الفكر الإنساني والحضارة في أوروبا بدءاً من اللغات الأوروبية التي تعود في أصولها إلى لغاتنا القديمة الآشورية والفينيقية والفرعونية حين انتقلت من أوجاريث في الشام إلى أوروبا. إن كلمة فينيسيا نفسها تشير إلى فينيقيا ومملكة فوينيسيا نشأت على سواحل الشام قديماً لترفد أوروبا باللغات التي أصبحت أداة الفكر التي أدت إلى ظهور علماء عصر الأنوار فيما بعد خلال القرون الخمسة الماضية. كنت أفكر بإمعان ليس في هذا فقط، بل بأشياء أخرى ومساهمات قيمة قمنا بها نحن شعوب هذه المنطقة لتعدل مسار التاريخ البشري في فترات الانحدار والتخلف الإنساني.
كان ذهني يسترجع هذا السيناريو التاريخي لفترات العظمة في تاريخنا، فترة التاريخ القديم حين أشعت أنوار حضاراتنا العظيمة على أوروبا فأنتجت حضارة اليونان وهي الوحيدة التي نشأت في أوروبا كلها ورثتها بعد ذلك الحضارة الرومانية، فيما كانت هذه المنطقة الممتدة من مصر إلى سوريا إلى العراق محوراً حضارياً ازدهرت فيه أربع أو خمس حضارات من أعظم الحضارات الإنسانية البابلية والآشورية والكلدانية والفينيقية والفرعونية والأنباط في الأردن وهي حضارات أثرت الإنسانية كلها، حتى الحضارة الهندية القديمة ولدت على يد السومريين وفي ظل تأثيراتها العظيمة. إن الميزة العظيمة والصفة الإنسانية التي تميز تلك الحضارات كونها رفدت الآخرين وكان تأثيرها عظيماً في المسار البشري الإنساني تجاوزت ما عداها من حضارات كانت جميعها حضارات محلية لم تؤثر كثيراً في محيطها الحيوي الإنساني قدر ما أثرت تلك الحضارات فها هي تغير خارطة الفكر الإنساني شرقاً في الهند وشمالاً وغرباً في أوروبا لتحيل العالم إلى عالم إنساني حقيقي متطور يفهم إنسانيته ويتخلص من همجيته ووحشيته وينتقل إلى أطوار حضارية متسارعة يتغير بها وجه العالم.
إنني أختص بتركيزي على أوروبا بالذات لدورنا الكبير والعظيم الأثر في نقل البشر في هذه القارة من مجتمعات همجية متخلفة إلى مجتمعات تتسيد العالم الآن بإنتاجها الحضاري المدني، لكن لابد لنا أن نستعرض الأمر بتفصيل موجز عن دورنا مع أوروبا حيث لم يقتصر الأمر على تأثيرنا الحضاري على أوروبا في التاريخ القديم، بل إننا في الحقيقة قمنا بذلك ثلاث مرات في فترات حاسمة كانت أولاها ما ذكرناه آنفاً، ثم تأتي حقبة الأديان التي انتشر هديها على البشرية كافة وأوروبا على وجه الخصوص فها هي اليهودية والمسيحية والإسلام، رسالات سماوية عظيمة دشنت بهديها قيم الإنسان الكريمة وأصلت بتعاليمها قيم التسامح والحب والتآزر والتعاون من أجل بناء مجتمعات متطورة تحكمها القيم الإنسانية والمبادئ والمثل العليا والتوجه إلى عبادة الإله الواحد والانتقال إلى عصر الأنوار والحضارة الحقيقية المتمثلة في السلوكيات الإنسانية الراقية والحس الإنساني الرفيع.
كنت أتأمل هذه المنطقة ودورها التاريخي العظيم في مسيرة الإنسانية حين اختارنا الخالق شعوباً ومنطقة لنحمل رسالات السماء بهديها العظيم للبشرية كافة. كان عقلي يتساءل: لماذا نحن ولماذا منطقتنا التي لا تزيد مساحتها الحضارية تاريخياً والتي نزلت بها رسالات السماء وبعث الله فيهم أنبياءه ورسله على مليون كلم مربع وهي مساحة دولة عادية في العالم الآن لتنتج هذا العدد الكبير من الحضارات الإنسانية العظيمة ويصطفي الخالق سبحانه من أهلها أنبياءه ورسله. وتساءلت: ألا يظهر هذا دورنا ومسؤوليتنا العظيمة وقيمتنا في نفس الوقت؟، وتذكرت قول الحق تعالى: (وجعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً). إن الأمة الوسط هي الأمة المكلفة بإبلاغ البشر على اختلاف ألوانهم وأعراقهم ولغاتهم هدي السماء، أليس هذا تكريماً عظيماً لنا؟.
ثم تأتي المرحلة الثالثة التي تنقذ فيها هذه الأمة أوروبا للمرة الثالثة من دياجير الجهل والتخلف والظلام حين انطلق نور العلم العربي الإسلامي من الأندلس إلى أوروبا ليأخذ بيدها وينقذها من مذبحة الجهل والتخلف والانحدار الإنساني الخطير الذي شهدته خلال العصور الوسطى على يد الكنيسة وخزعبلاتها وكهنوتها.
إن أسماء ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن ميمون سيظل التاريخ الإنساني وأوروبا على وجه التاريخ يرددها وينحني احتراماً لما فعلوه وغيروا به وجه أوروبا التي اندفعت بتأثيرات علومهم وفكرهم لاقتحام عصر الأنوار وركل الخزعبلات والخرافات الكنسية والانطلاق لتبوؤ هذه المكانة العظيمة في تاريخ الإنسانية.
في هذه الفترة لم يكن في أوروبا كلها سوى ثلاث جامعات فقط هي جامعة بادوا في شمال إيطاليا والكلوليج دي فرانس في باريس وإكسفورد في انجلترا، هذه الجامعات لم تكن تدرس أي علوم باستثناء علوم اللاهوت فقط، ولم تكن تعرف العلوم الأخرى كالطب والهندسة والفلك والرياضيات، في الوقت الذي كان فيه العرب في ظل الحضارة الإسلامية العظيمة قد وصلوا إلى ذروة الحضارة العلمية آنذاك في الطب

والفلك والهندسة والرياضيات ومنها الجبر، هذا العلم العربي الرياضي الأصيل، وكان الفكر العربي والمفكرون والعلماء العرب في قمة توهجهم الحضاري والفكري حين أهدوا أوروبا عقلها وفكرها الذي تأسست به نهضتها الفكرية والحضارية حتى وصلت إلى ما وصلته الآن.
إذن ثلاث فترات تاريخية مفصلية في تاريخ أوروبا والعالم يكون لشعوب هذه المنطقة الفضل الأوفر والرئيسي في تعديل مسار التاريخ وإنقاذ البشرية من دياجير الجهل والهمجية وتوجيه بوصلة مسارها نحو التطور العلمي الحضاري والارتقاء الإنساني وأهمها على الإطلاق هي المرحلة الوسطى التي تكفلت وتكلفت أيضاً هذه المنطقة بحمل رسالات الهدي السماوي إلى البشرية كافة عبر رسل الله الذين حملوا كتبه المقدسة كمناهج هدي ونور نقلتها من عبادة الأوثان والطواطم والبشر إلى عبادة الخالق العظيم ونظمت لها حياتها عبر تشريعات عظيمة، وهنا لابد من التوقف واستعراض الإسلام كدين خاتم ونبيه محمد عليه صلوات الله وسلامه.

الحرب على الأديان

لم تسلم رسالات الهدي السماوي وتشريعاتها العظيمة من التشويه ومحاولات تحريفها وتشويه معالمها الفكرية والتشريعية القائمة على توجيه الإنسان إلى عبادة الله الخالق العظيم والالتزام بتعاليمه التي تحض على أمنه وسعادته في حياته والفوز بالرضوان والرحمة بعد مماته وكل التشريعات التي أتت مع رسالات السماء عبر الأنبياء عليهم سلام الله كانت تنظم للإنسان الأساسيات الضرورية والخطوط الرئيسية لبناء مجتمعات منظمة سليمة آمنة تحتمي بالتشريعات التي تضمن سلامتها ضد عوامل انحدارها وفسادها وهلاكها.
وقد تعرضت الديانة الموسوية (اليهودية) إلى تشويه خطير عبر تحريف التوراة وتعاليمها العظيمة عبر التاريخ ومن خلال اليهود أنفسهم وربما يذهب البعض من المولعين بالتشكك الدائم في مصادر التوثيق لهذه الحقيقة وهى حقيقة التحريف ولذلك لن ألجأ هنا إلى القرآن وهو مصدري الأساسي الذي لا تشوبه شائبة على الإطلاق ولكن على المتشككين أن يقرأوا العهد القديم أو التوراة ليكتشفوا بأنفسهم هذا التحريف الواضح والصارخ للتوراة عبر خزعبلات لا يقبلها العقل ولا المنطق ويتضح ذلك حتى للبسطاء من الناس. ناهيك عن علماء الغرب المتخصصين في الأديان الذين توصلوا إلى هذه الحقائق، وبالتالي تم تفريغ الشريعة اليهودية من مضامينها العظيمة لتتحول إلى أداة في يد تجار السياسة من الصهاينة، كما تحولت إلى مسخ مشوه يتغي المادية في أسوأ صورها، أوصل اليهود إلى مجتمع لا يملك من الدين إلا شكلاً بلا مضمون شوه العقيدة الموسوية وألقى بجوهرها جانباً ودمر الجانب الروحي لليهود.
أما المسيحية فحدث ولا حرج حول ما لحق بها من تحريف وتدليس كان أسوأه هو التثليث الذي لم يرد إطلاقاً في أي موضع من مواضع الكتاب المقدس الذي تم تحريفه بشكل صارخ، الأمر الذي تسبب في وجود أناجيل قانونية أخذت بها الكنيسة وأخرى غير قانونية وجميعها تخلو من الحقائق العقدية السليمة، ثم أنها لا تتضمن تشريعاً دنيوياً ينظم حياة المجتمعات الإنسانية بجوانبها المختلفة فأصبحت اليهودية دين المادة والمسيحية دين الضمير كما ذكره المفكر الإسلامي العظيم علي عزت بيجوفيتش الرئيس البوسني الراحل في كتابه القيم، الإسلام بين الشرق والغرب، وبسبب غياب الحقائق في الأناجيل وما احتواها من تحريف وخزعبلات. تمردت المجتمعات المسيحية على الكنيسة خاصة في أوروبا حين تسلل نور العلم والفكر العربي إلى أوروبا خلال القرنين الثاني والثالث عشر عبر الإشعاع العلمي العظيم في الأندلس، الأمر الذي تسبب في انتفاضة العقل الأوروبي والمجتمع هناك على سلطة الكنيسة التي أذاقتهم الويلات خلال فترة القرون الوسطى سيئة الصيت وركل هذه الخزعبلات إلى داخل جدران الكنيسة وانطلق متحرراً من هذه العقيدة التي شوهتها أيدي الأحبار والرهبان ليبني حياة دنيوية خالية من الجانب العقدي الروحي الحقيقي، فظهرت المدنية الغربية الحديثة التي وصلت إلى أوج قوتها الآن في ظل الرأسمالية الليبرالية المتوحشة التي تتغي استغلال الإنسان بلا رحمة من أجل الثروة دونما أي مشاعر روحية حقيقية ترعى الجانب الإنساني والقيمي من الحياة.
وهنا أورد مقولة الأستاذ الدكتور والمفكر الإسلامي الكبير رشدي فكار الذي كان أستاذاً في جامعة السوربون بفرنسا، حيث قال (إن المدنية الغربية أعطت الوسائل المادية ولم تعط روح الإنسان)، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل يعترف بها حتى المفكرون الغربيون.
إن الأديان كلها ودون استثناء قد أهداها الله تعالى إلى عباده من البشر هدى ورحمة ونوراً لمجتمعاتهم وحياتهم فتركوها وأهملوها وبسبب ذلك تواجه البشرية مخاطر هائلة تتمثل في احتمالية حروب مهلكة تستخدم فيها ما توصل إليه العقل الإنساني في غيبة القيم الروحية إلى صنع وإنتاج وتخزين أسلحة الفناء النووية والهيدروجينية وغيرها.
أما الإسلام فقد جاء كدين يحمل عظمته في كتاب الله وشريعته العظيمة التي نظمت للإنسان حياته بشكل شامل وفي تناسق واكتمال معجز والمتأمل للإسلام يرى منهاجاً تشريعياً دنيوياً متكاملاً ينظم حياة المجتمعات الإنسانية بشكل دقيق في حياتها ودينها وعقلها ونسلها ومالها مراعياً الجوانب الشاملة لحياة الإنسان في كل صورها واحتياجاتها ومانعاً للآفات الدنيوية التي تصيب الإنسانية في مقتل كالظلم والغبن والجهل والاستعباد بكافة أنواعها.

الإسلاموفوبيا

وبسبب شمولية هذا الدين لحياة الإنسان وتنظيمها بشكل دقيق اعتبر الإسلام منهاجاً دنيوياً لا يعتوره النقص ولا يشوبه الإعوجاج، الأمر الذي أهل الإسلام بقيمته العظيمة التي تتغي سعادة البشر في حياتهم ليكون بديلاً حقيقياً لكل النظم السياسية التي ابتدعها الإنسان عبر تاريخه وأثبتت فشلها بوضوح في تحقيق حياة سليمة وسعيدة للبشر من خلال انحيازها إلى فئات بشرية دون أخرى وظلمها لفئات بشرية لحساب أخرى وسعارها الوحشي لماديات الحياة دونما مراعاة للجوانب الإنسانية والقيم العليا.
إن الفرد في الإسلام هو الغاية باعتباره أساس البنيان الاجتماعي بحياته ودينه وعقله ونسله وماله وهي محاور رئيسية للحماية والحفظ، وبالتالي فإن المجتمعات تتقدم في حياتها بأمان وسعادة لا مجال فيها للفساد والظلم واستعباد البشر ولذلك نشطت الجماعات المعادية لهذا النسق الإنساني العظيم الذي سيقص مخالبها الشريرة ويقضي على سعارها المحموم لحيازة القوة والثروة على حساب الآخرين وأخذت تكيد

وتتآمر لإيقاف وتعطيل هذا النهج السماوي العظيم الذي يهدد وجود ومرابح هذه الطغم الشيطانية ومصاصي الدماء في مؤامرة كبرى وضحت معالمها تماماً لكل ذي بصر وبصيرة وليس أدل على ذلك ما يحدث الآن حين وجدوا من يستخدمونهم من المسلمين ليفجروا ويقتلوا الأبرياء بإشرافهم وتحت مسامعهم وأبصارهم ثم تبدأ حملة محمومة بتشويه الإسلام كدين وعقيدة يقودها إعلام متمكن وقادر في ظل ثورة اتصال هائلة جعلت من الكرة الأرضية قرية صغيرة ليبثوا الخوف في قلوب الناس من هذا الدين الذي اتهم ظلماً وزوراً بالإرهاب والقتل وهو الدين الذي حرم دم الإنسان على الإنسان في جوهر شريعته وحرمها في كل الأديان السماوية الكتابية وأولها اليهودية حسبما ورد في كتاب الله تعالى (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً).

وتأكيد رسول الله الخاتم عليه صلوات الله وسلامه على حرمة دم المسلم وقداسة النفس المسلمة التي تفوق قداسة وحرمة بيته الحرام.

فكيف لنا ونحن نعلم يقيناً أن قتل النفس بلا جريرة ولا سبب من أشد الأمور حرمة عند الله وفي صلب هذا الدين العظيم أن نصدق أن من يقتلون الأبرياء ويفجرون تجمعات البشر ومدنهم ومجالسهم مسلمون. إن هذا الإجرام البشع يتنافى بشكل قاطع مع أبسط مبادئ الإسلام، لكنه في ظل الفوضى السائدة في العالم وفي ظل هيمنة إعلامية وسياسية تعادي هذا المنهج العظيم لا يمكن للمجتمعات أن تتحقق أو أن تصل إلى الحقائق المقنعة وكما قال البروفيسور فيليب تايلور أستاذ الإعلام الانجليزي الجنسية في كتابه (قصف العقول) وتحديداً في مقدمته: إنه إذا كانت الحروب العسكرية تقتل الناس وتدمر المنشآت بالقنابل والصواريخ فإن الإعلام قصف للعقول، يغير الحقائق ويستطيع أن يعيد تدوير أفكار وعقول البشر من خلال لي الحقائق وتزوير الأحداث، فكان أن صنعوا من خلال هذا الزيف الإعلامي المتدفق حالة من الخوف بين المجتمعات الغربية والشرقية من الإسلام باعتباره الخطر الداهم الذي يهدد الحضارة الإنسانية ويتغي تقييد حريات البشر وهذه الأمور أبعد ما تكون عن الحقيقة في ظل ضمان عظيم وحماية شرعية لحياة الفرد وعقله ودينه ونسله وماله ونسوا الآية العظيمة (ولقد كرمنا بني آدم)، ثم تناسوا حتى حرية الإنسان الطبيعية في عدم إيمانه وكفره من خلال آيات كثيرة ومتعددة في كتاب الله ولنتأمل قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين). وقوله تعالى : {من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}، وقوله تعالى : {وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم}، والكثير الكثير مما ورد في كتاب الله تعالى من الآيات التي تثبت هذه الحرية التي أعطاها الخالق سبحانه وتعالى للبشر ثم ننتقل من صور الحرية التي منحها الله للبشر في كتابه العزيز إلى صور عملية على أرض الواقع ولنتأمل كيف كان المسلمون يحترمون عقائد الآخرين وممتلكاتهم ويصونون حرياتهم كبشر. فهل سمعنا أو قرأنا مثلاً أن المسلمين قتلوا أو نهبوا المجوس والزرادشت في بلاد فارس وهل قتلوا أو نهبوا المسيحيين في الشام أو بيت المقدس وحتى في البلاد الوثنية في آسيا أو إفريقيا لم يقتلوا ولم تحطم معابدهم ولا تماثيلهم، فالإسلام بقيمه الرفيعة وتعاليمه السمحة العظيمة وتوجيه الناس من عبادة البشر والحجر إلى عبادة الواحد الأحد المتحكم والمهيمن على مصير الكون وصيرورته وتنظيم شؤون الناس وحياتهم ومجتمعاتهم بشكل دقيق مبن على أساس العدل والتراحم والتواد.

هل نسي العالم أم تناسوا حقائق التاريخ حين أقدم أبو لؤلؤة المجوسي الذي كان يعيش في المدينة يتمتع فيها بعدل الإسلام وسماحته وهي عاصمة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم على طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه وهو يؤم الناس في الصلاة. إن هذا الأمر ليست له مقاربة في التاريخ حيث الحرية والعدل الذي يتيح للآخر أن يكون مع القائد والإمام في الوقت الذي يريد والمكان الذي يرغب وحين يدخل علي كرم الله وجهه في نزاع مع يهودي على درع يزعم اليهودي أنها له ويدخلان على القاضي فينادي علياً بأبي الحسن وينادي اليهودي باسمه فيغضب علي ويقول للقاضي كنيتني ولم تكنه وكانت غضبته للحق والعدل في صالح خصمه الذي أذهله ما رأى من عدل وحق وهل نسوا أم تناسوا حين اعتدى ابن عمرو بن العاص حاكم مصر ووالياها في عهد عمر وأحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبطي المصري حين سبقه بحصانه وكيف أتى به عمر إلى المدينة بعد شكوى القبطي له وحين تحقق من الأمر أعطى السوط للقبطي وقال له اضرب ابن الأكرمين كما قالها له ابن عمرو بن العاص (أتسبق ابن الأكرمين ثم اعتدى عليه بالسوط)، ثم قال عمر قولته المشهورة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

هل جهلوا أم عموا وتناسوا ولم يقرأوا العهدة العمرية التي تجسد عدل الإسلام وسماحته وإنصافه واحترامه للبشر وعقائدهم والمعلقة على جدار المسجد الأقصى والمعروفة للقاصي والداني. إن العهدة العمرية وثيقة شرف للتاريخ الإنساني كله منذ أربعة عشر قرناً خلت، أتحدى أن يجود الفكر السياسي الإنساني في القرن الحادي والعشرين وفي ظل الشعارات الرنانة لحقوق الإنسان والعدل والمساواة بشبيهتها قولاً وفعلاً.

ففي هذا القرن الحادي والعشرين بعلمه وتطوره وثقافته وتقنياته تعطى الشعوب عهوداً ليس كالعهدة العمرية على الإطلاق ولا تمت لها بصلة في قدرها وسماحتها وشرفها الإنساني، بل تعطى الأمم الآن عهوداً بالقصف والتدمير والإبادة والإذلال والتجويع، وقنابل الفناء الهيدروجينية والنووية جاهزة للانطلاق خلال ثوان معدودات إن استلزم الأمر ويا لها من مفارقة تبعث على الغضب والاشمئزاز، في عصر يسحق الإنسان فيه بلارحمة تحت مطرقة التذلل من أجل ورقة خضراء تتحكم بحياته وعقله وعقيدته يقال عنها المال، أصبح يبيع من أجلها عرضه وعقله ومبادئه وأمنه.

الإسلام والحضارة

ما من شك في أن الإسلام بمنهجه الشامل عبر سياقيه العقدي الديني والتشريعي الدنيوي، أرسى دعائم حضارة إنسانية الأبعاد شمولية الجوانب نقلت المنطقة والعالم كله تقريباً نقلة تاريخية مفصلية لكنه ما إن تمت عملية السطو السياسي على الجانب العقدي الديني ومنعه من مواكبة السياق الدنيوي حتى انطلق الجانب المدني العلمي الدنيوي متحللاً من مكابحه الأخلاقية والروحية ليصنع عالماً حديثاً يحمل في طيات

حداثته ومدنيته أمراضاً خطيرة وشراً مستطيراً، فبعد ظهور الإسلام كرسالة دينية ودنيوية شاملة انطلقت حضارة عظيمة لايشبع نهمها العلمي الدنيوي في ظل مكابح عقدية قيمية تمنع انحدار السياق العلمي الدنيوي إلى دركات الشرور التي تعصف بالإنسانية وتهدد وجودها كما نراه الآن ونستشعره ونعيشه من انسداد الأفق الحياتي للقطاعات الكبرى من البشرية أمام غول المادية الدموي الذي لا يتورع عن إحراق وإبادة نصف البشرية من أجل نهمه المادي حيث تخلت الحضارة عن جزئها القيمي العظيم الذي يعد بمثابة صمام الأمان للمسيرة الحضارية الإنسانية.

ولاستعراض هذا الأمر علينا التمعن قليلاً في الفترة التاريخية التي ظهر فيها الإسلام حيث ضعفت وذوت الحضارتين الفارسية والرومانية وكانت الحضارة الرومانية قد استنفذت قوة اندفاعها تقريباً وأذنت شمسها بالغروب وبالتمعن قليلاً في أسباب ضعف وانهيار الحضارتين نجد أنه بالإضافة للأسباب الطبيعية والسياسية التي أدت إلى ذلك كان هناك سبب رئيسي يدعو للتأمل وهو غياب الجانب القيمي الإنساني وتجاهله في هذه الحضارات فإضافة إلى الشقاق والفساد الإداري والسياسي والنزوع إلى اغتصاب الحكم بالقوة لمنافع طبقية دنيوية والعنصرية البغيضة والاستعباد كان غياب المنهج القيمي الديني العظيم الذي يتربى الفرد من خلاله على نظام فكري تحكمه الضوابط الشرعية التي تسد كل الثغرات التي تنفذ من خلالها فيروسات الأمراض التي تضرب وتعصف بالمجتمعات وتقضي على نظمها السياسية والإدارية وتجعلها نهباً للضياع بعد أن تمتص قوتها وعوامل ازدهارها. إن العقائد التي كانت سائدة في الفرس قبل الإسلام والفكر الدنيوي المتحلل من القيم العليا التي تنظم العلاقات بين البشر على أساس المساواة والعدل كان سائداً أيضاً في الحضارة الرومانية حيث لم يكن هناك بعد إنساني كوني لهما، بمعنى أن الإنسان كان في كلا الحضارتين هو الإنسان الفارسي والروماني فقط وكل ما عداها كان أقل في إنسانيته وقيمته من البشر الذين يحملون تابعية كلا الحضارتين ولم تكن كلا الحضارتين جاهزتين لتشعا على البشرية أينما كان البشر وكيفما كانوا، بل كانت هذه الحضارات المدنية نتاجاً للإشعاعات الحضارية في بلاد الرافدين والشام ومصر والفارسية نتاجاً سومرياً وبابلياً وآشورياً واليونانية القديمة (الهيلينية) نتاجاً فينيقياً وفرعونياً ثم ورثتها الرومانية وبالتالي ورثت ممتلكاتها في بلاد الشام ومصر ونقلت إلى روما كل الفنون والنتاج الحضاري في هذه المنطقة.

وفي الحضارة الإسلامية أيضاً وبرؤية ممحصة ودقيقة وموضوعية نجد أنه حدثت نهضة علمية حضارية رائعة انتقلت بها البشرية نقلة كبيرة إلى درجة متقدمة من الحس الإنساني العظيم والإبداع المتميز، كان أهمه الفكر والنشاط العقلي الذي أشع بأنواره على المنطقة كلها ونقل العالم إلى مرحلة الشعور الإنساني ومنها بدأت نهضة علمية عظيمة في ظل توازن فكري يجمع بين حرية الإنسان وكرامته وتوجهه إلى الله بالعبادة والتقديس والالتزام بالشرائع التي تضمن انضباط الحياة الاجتماعية ونظامها الدقيق وبنظرة إنسانية شمولية لا يستثنى منها الأسود أو الأصفر ولا ينظر فيها إلى عرق بشري على أنه أقل من الأعراق الأخرى، قيمة أو كرامة أو قدرة على الإبداع والإنتاج وفعل الخير النافع. وكانت هذه الشمولية الإنسانية ذات الأبعاد القيمية عاملاً حاسماً في قبول الإسلام كنظام اجتماعي من قبل غير المسلمين في البلاد التي فتحها المسلمون أو التي انتشر فيها الإسلام بالدعوة عبر وسائل التجارة وغيرها ولننظر كيف سادت لغة الإسلام والقرآن في البلاد التي دخلها الإسلام كبلاد فارس والشام ومصر والعراق وشمال إفريقيا حتى أنها نحت اللغات المحلية الوطنية التي كانت سائدة في هذه البلدان رغم كونها لغات لها إرث حضاري عظيم إن كانت فارس أو العراق أو الشام أو مصر وأصبحت لغة العلم والدين والمجتمع وكانت كل البلاد التي فتحها الإسلام تعيش قبل وصوله تحت طغيان الملوك والقياصرة والأكاسرة وطبقات النبلاء والأمراء ومواليهم وفي ظل نظم اجتماعية لا تعرف الرحمة أو العدل أو القيم الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام ثم لننظر إلى إفريقيا التي حولها الإسلام من شعوب ومجتمعات لا ترى فارقاً بين الإنسان فيها وحيوانات الغاب وفي ظل جهل حالك الظلمة يلجأ فيه الناس إلى الطواطم والطقوس الوثنية والشعوذة إلى بشر حقيقيين ينبذون هذه الأفكار والعادات التي تجعلهم أقرب إلى حيوان الغاب ويرتقون إلى مدارك الطمأنينة الإنسانية والرقي وينتظمون في مجتمعات إنسانية حقيقية يشعر الإنسان فيها بإنسانيته ويكتشف جوانب الرحمة والعدل والقيم العليا في ظل دين يوحدهم ويرتقي بهم من خلال الإيمان بالخالق العظيم ومقدرته وبمنهاجه التشريعي الذي جعلهم يقيمون مجتمعات إنسانية راقية بالقياس إلى ما كانوا يعيشون قبل ذلك فتكونت ممالك يذكرها التاريخ في تمبوكتو وفي السنغال ونيجيريا وغيرها من دول إفريقيا.

إلا أن اختطاف العقيدة وتحديداً الجانب العقدي من المشروع النهضوي الإسلامي المتكامل وتجييره لصالح حكم لا يقوم ولا يتغي إلا مصلحته ومصالح طبقية ويتحول الحكم إلى ملك عضود سد آفاق الفكر السياسي الإسلامي المستنير القائم على الشورى والذي يتغي صالح البشر أينما كانوا في الأمة والذي يرنوا ببصره إلى مستقبل العالم وآفاقه البعيدة بنظرة يحكمها الشرع وغاياته، وضاقت النظرة السياسية حتى انحدرت إلى مستوى المحافظة على أنظمة الحكم السياسي في الدول الأموية والعباسية والعثمانية فوصل حال الأمة والبشرية إلى ما وصل إليه.

وعلى ذلك فإن الآفة الحقيقية للحضارة الإنسانية هي قيامها وصيرورتها على ساحة واحدة هي المغريات الدنيوية من حكم ومال ونفوذ وبالتالي فإن سقوطها محتم حين تبدأ إفرازات ونتائج هذا الخيار الخاطئ تتراكم وتضغط حتى تصل بها إلى الانهيار وهذا ما حدث في الحضارات السابقة كلها وما حدث في الحضارة الإسلامية أيضاً، لكن الإسلام ونهجه الديني العظيم كان له الأثر العظيم في استنارة العالم، خاصة أوروبا بعد أن ضربها إعصار الجهل والتخلف والانحدار الخطير تحت مطارق الخزعبلات الكنسية في العصور الوسطى.

ففي القرن الثاني عشر وفي ظل توهج الحضارة الإسلامية، خاصة في الأندلس كان الأوروبيون يغطون في مستنقعات الجهل والتخلف والقمع الفكري والعلمي الرهيب الذي كانت تمارسه الكنيسة بلا رحمة ضد أي كان يحاول أن يفكر بعقله وحتى لمجرد الاشتباه، كان الناس يساقون إلى الموت تحت تعذيب بشع بحجة الهرطقة والتجديف ضد الدين وكانت طبقة رجال الدين وعلى رأسهم البابا يمارسون وصاية شديدة الوطء على عقول ونفوس البشر وبلغ من الجهل في أوروبا أنه حينما انتشر وباء الطاعون في أوروبا وحصد أرواح ما يقارب 20

مليون إنسان، كانوا يظنون أنها أرواح شريرة وحاولوا حماية البابا بوضعه وسط دائرة كبيرة من القش أشعلوا فيها النيران حتى لا تصل إليه تلك الأرواح الشريرة في الوقت الذي كان فيه العرب قد أسسوا لعلوم الطب الحديث والفلك والرياضيات والهندسة وبلغت حرية الفكر أوجها.
ولم تكن في أوروبا سوى ثلاث جامعات فقط تدرس علوم اللاهوت الكنسي حين بدأ نور الفكر والعلوم العربية التي صنعتها حضارة الإسلام في التسلل لتنير العقل الغربي وليكتشف الأوروبيون المأساة التي كانوا يعيشون فيها وهذا القدر الرهيب من الظلم والتخلف والجهل. من الأندلس بدأ فكر ابن رشد يضيء أوروبا وتبعه باقي علوم وفكر العرب، فانتفض الأوروبيون على الكنيسة بردة فعل هائلة رفضت الدين رفضاً مطلقاً وحصرته داخل جدران الكنيسة.
وللحقيقة فإن المسيحية لم تكن ديناً يحمل مشروعاً دنيوياً على الإطلاق، وحين تم تحريفها وتفريغها من مضامينها العقدية السليمة، فقدت بالتالي قدرتها على تنظيم حياة بشرية قادرة على التطور والتزام معابد النهضة الدنيوية وهذا دليل آخر على صدق نظرية المنهاج المتكامل عقدياً وتشريعياً دنيوياً الذي جاء به الإسلام والصالح لقيام حضارة إنسانية كاملة صحيحة وقادرة على التطور بإيقاع متناغم قيمي وإنساني وإبداعي.
فحين سيطرت الخزعبلات الكنسية التي لا تمت إلى عقيدة سليمة على أوروبا جعلت منها مجتمعات جاهلة متخلفة لا قيمة لها إلا أن الغرب الأوروبي الذي رفض الجانب العقدي وامتلك ناصية العلوم الدنيوية انطلق يصنع حضارة ومدنية جامحة لا مكابح لها يقيها من الجنوح وبالتالي فإنها تعتمد الساق الواحدة وتواجه الآن نفس الأمراض وعوامل الانهيار التي سجلها تاريخ الحضارات الآفلة السابقة.
فالحضارة الغربية تعتمد ما اعتمدته الحضارات السابقة، ثم أنها تعتمد على فكرة القوة المادية وتحاول العمل على التجديد المتواصل لفكرة القوة المادية، إلا أنها أخذت الخيار السياسي الذي يتجنب اختزال الدولة في شخص الحاكم أو طائفته ومنحت الحقوق والحريات لمواطنيها وهذا شيء جيد بلا جدال، بل وأهم عوامل تجديد موارد القوة المادية لكنها تنحو منحى خطيراً سيرقد عليها بلا شك وهو أن هذه القوة المادية الجامحة تشتمل على عنصرين خطيرين.
1 ـ الحرية الاجتماعية التي تتغي المتع الدنيوية بشكل مفتوح يتنافى مع سلامة المجتمعات عبر سلامة أفرادها وتجاهل المحظورات التي تعصف بالأمم كحرية الجنس في أوقح صوره والربا والقمار وحيازة المال عبر تجارة يحكمها الاحتكار وجماعات النفوذ التي تتداخل مع السياسة بشكل فاضح.
2 ـ الضغط المتواصل على الموارد الطبيعية البشرية بسبب نهم لا يشبع لحيازة المال وما سيسببه ذلك من آثار سياسية واجتماعية كارثية نرى بعض تباشيرها الآن بوضوح.
3 ـ الحروب واستخدام الدمار كوسيلة من وسائل الثروة والنفوذ السياسي والهيمنة على شعوب وثروات العالم.
4 ـ انتهاج فلسفة صدام الحضارات كفكر سياسي يتغي فرض ثقافات اجتماعية وسياسية وقيمية على شعوب العالم ذات الحضارات العريقة القديمة والأديان، خاصة الإسلام الذي اختصه البروفيسور صامويل هنتجتون بحيز كبير من الاهتمام في أطروحته (صدام الحضارات) باعتباره العدو الرئيسي للحضارة الغربية، وهنا لابد من وقفة وتساؤل:
لماذا الإسلام بالذات كدين وحضارة وثقافة أخذ هذا البعد والاهتمام الكبير من تفكير النخب السياسية الغربية ومراكز الأبحاث الاستراتيجية؟
وللتذكير فقط ببعض الحقائق التي لا غنى عنها نورد الآتي:
أولاً : جامعة هارفارد أول جامعة أميركية ذات ثقافة يهودية، تأسست على الأرض الأميركية.
ثانياً : أن جامعة هارفارد كانت اللغة المفضلة فيها هي العبرية.
ثالثاً : البروفيسور صامويل هنتنجتون يهودي الديانة والثقافة.
رابعــاً : أن المحافظين الجدد أو المسيحيين الصهيانة من البروتستانت كانوا دائماً النخبة التي تدير وتوجه دفة السياسة الأميركية، بدءاً من أول حاكم لمستوطنة خليج ماساشوسيس ويليام بير الذي أجاب حين سئل عن سر إجادته للغة العبرية قائلاً: (إنني أحلم برؤية الحكماء القدامى في جمالهم الأصلي).
خامساً : أول مطبعة وصلت إلى الأراضي الأميركية كانت بالحروف العبرية.
سادساً : أول كتاب طبع على الأراضي الأميركية كان كتاب (مزامير داوود).
لكن التساؤل الحقيقي يكمن في السؤال التالي:
لماذا الإسلام والعرب المسلمين تحديداً، خاصة أن العرب المسلمين لم يسجل التاريخ على الإطلاق أنهم آذوا اليهود باعتبارهم يهوداً، بل على العكس من ذلك عاشوا في ظل الإسلام وحضارته مكرمين أحراراً في حياتهم وأنشطتهم الاجتماعية والدينية، بل ووصلوا إلى مكانة كبيرة في المجتمع الإسلامي ولم يكن ذلك لكونهم يهوداً على الإطلاق، بل لأنهم أحد مكونات المجتمع الإسلامي عبر التاريخ، وأذكر هنا ابن ميمون على سبيل المثال كطبيب وفيلسوف كان يشار إليه بالبنان في حياته وحتى الآن في تاريخ العرب حيث كان ابن ميمون نتاج حضارة الإسلام كغيره من العلماء والمفكرين المسلمين.
إضافة إلى أن الإسلام لم يرد في تاريخه الذهبي ما يشير إلى قمع ديني أو تمييز ديني أو عرقي على الإطلاق لأنه من المعروف أن الإسلام كدين وكمنهاج حياة ينبذ بشدة أي تمييز عرقي أو أي جور إنساني في أية صورة.
وللإجابة عن هذا التساؤل علينا أن نغوص قليلاً في بعدين رئيسيين، أولاً البعد الديني: حيث يقوم الإسلام ويرتكز على التوحيد والتوجه الروحي الخالص لعبادة الإله الواحد الذي يخلص البشرية من الظلم وطغيان القوي على الضعيف، ويقص مخالب الشر المتمثلة في الاستغلال

الإنساني البشع وقوامه الاستغلال المادي، إضافة إلى المحاولات المستميتة لقوى الشر الشيطاني لإبعاد الناس عن عبادة الإله الواحد والإيمان العظيم برسالات الله إلى البشرية بكل ما تحمله من هدي وتنغي به سعادة البشر وهو الأمر الذي تحاربه وتقاومه بشدة القوى الشيطانية التي عبدت طاغوتها المجرم وهو الشيطان الذي أقسم أن يغوي البشر الذين خلقهم الله لعبادته وهداهم إلى سبل التنور والنجاة، ولقسمه على إغوائهم بدأ عمله الفوري بعد أن حصل على الوعد بالانتظار حتى قيام الساعة (أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) صدق الله العظيم.

وربما يسأل سائل: هل تعلم البشرية كلها من غير المسلمين بهذا الأمر؟

أقول: نعم، كل البشر على أشكالهم وأجناسهم يعلمون قصة الخير والشر من خلال تراثهم الإنساني، بل ويؤمن غير المسلمين وأهل الكتاب بوجود الله الخالق، لكنهم يختلفون في فهم الألوهية وكننها وحقيقتها، لأن الإنسان بفطرته ـ وأذكر هنا الإنسان البدائي الذي لم تصله رسل ولا أنبياء ـ كان يتشوق إلى قوة غيبية عظيمة يشعر بها لكنه لا يفهمها وكان تشوقه إلى هذه القوة تشوق الضعيف المنهك الخائف إلى هذه القوة لتحميه وتطمئنه وتشعره بالسعادة، وهنا أشير إلى ما أورده المفكر الإسلامي العظيم علي عزت بيجوفيتش رئيس البوسنة الأسبق في كتابه القيم (الإسلام بين الشرق والغرب) حول الإنسان القديم البدائي في معرض تفنيده لنظرية داروين المنهارة (النشوء والارتقاء) التي سحرت عقول وألباب الأوروبيين ردحاً من الزمن وكانت معياراً خاطئاً لفهم كينونة الإنسان وخلقه وأظهر فيه بجلاء الفرق الشاسع بين الإنسان والحيوان، حيث خلق الله الإنسان من طين ونفخ فيه من روحه وهو ما يعني أن الإنسان أحد جزئيه من مادة والآخر من روح الله تعالى.

وعلى ذلك فإن القوى الشيطانية التي باعت روحها وعقلها للشيطان استسلاماً لمغريات دنيوية زائفة توغل في غيها ومحاربتها للأديان التي تحرمها من مرابحها الدنيوية وتقص مخالبها الشريرة التي تحاول من خلالها وفي سعار محموم حيازة الثروات واستعباد البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم.

أما البعد الثاني وهو البعد المادي، حيث تقوم فلسفة القوى الشريرة في العالم على امتصاص الثروات وحيازتها بكل الطرق الشريرة والمخيفة كالحروب التي تؤدي إلى قتل البشر وتدمير حياتهم وتحويلها إلى مآس إنسانية رهيبة يراها الناس بعيونهم على مدار الساعة، وفرض الأجندة الفكرية الشيطانية التي تضمن إبعاد الناس عن جادة الهدي والصواب تحقيقاً للوعد الملعون وعبر فرض النظم الربوية والإباحية وكل المفاسد تحت شعارات الحرية وحقوق الإنسان.

حيث استخدموا هذه الشعارات البراقة ذات المدلولات الجميلة لخداع البشر وزينوها بالنماذج الزائفة التي تخلب ألباب الناس وتسحر عقولهم، الأمر الذي أدى إلى احتدام الصراع بين المدركين للمخاطر الهائلة التي تحدق بالإنسان والبادية للعيان ولكل ذي لب وبصيرة من خلال ما يتعرض له الكون من خلل بيئي خطير يهدد بأحداث مأساوية وويلات ستعاني منها البشرية من أعاصير مدمرة وفيضانات مهلكة وحالة من الجوع العالمي والفقر المتفشي الذي يعصف بالمجتمعات الإنسانية في أغلبها، إضافة إلى المآسي والكوارث المنظورة في الأفق والتي يصرخ العلماء تحذيراً من حدوثها.

إضافة إلى الشر المستطير الذي يحلق بالكرة الأرضية، هذا البيت البشري الكبير من خلال أسلحة الفناء والدمار الشامل الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الاستخدام والذي يؤكد علماء العالم وعلى رأسهم العلماء الأميركيون والروس بأن استخدام ما قيمته 5000 ميجاوات من القنابل الذرية في حرب كونية يعني هلاكاً محققاً ودماراً شاملاً للكرة الأرضية بأسرها وخراباً بيئياً شاملاً يهلك الحرث والنسل ويقضي على الأخضر واليابس. وفي النهاية ستكون الخسارة شاملة للأسرة البشرية بعنصريها الخير والشرير، لكن خسارة الخيرين ستقتصر على ماديات دنيوية هي زائلة بطبعها بوجود الموت وهو الحقيقة التي لا مراء فيها ولا جدل حولها بين البشر، حيث الفوز برحمة الله ورضوانه في حياة خالدة سعيدة لا حزن فيها ولا خوف ولا نصب فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولذلك فإن سؤالاً أو تساؤلاً بدهياً وبسيطاً يدور في العقل ويجب أن يحرك عقول الناس وهو: ما قيمة الجنوح والشطط والابتعاد عن مكامن الطمأنينة والسعادة إذا كانت الدنيا تنتهي بموت الإنسان وعلى ذلك فإن الدنيا بمغرياتها قد انتهت منذ بدأ موت الإنسان الأول ولنقس على هذا الأمر قيمة المغريات الدنيوية لإنسان يدرك حتماً ويقيناً أنه سيموت وبموته فإن دنياه بكل مغرياتها قد زالت بالفعل وانتهت وتبخرت قيمتها.

فالموت وزوال المغريات هو سنة الخلق وقانونه الحاسم ودستوره الأزلي المتواصل الحدوث للكون كله بموجوداته وعناصره وأهمها هذا الكائن ذو العقل والفهم والمعرفة.

وللحقيقة فإن حقائق الشر في العالم تم كشفها من قبل العديد من المفكرين والكتاب في العالم الغربي المسيحي، كما اكتشفتها دوائر ومؤسسات حكومية غربية عدة وقد تعرض العديد من الكتاب الغربيين في العالم لهذه الحقائق المخيفة ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الكاتب الأميركي ويليام جاي كار في كتابه الشهير (أحجار على رقعة الشطرنج) وما أورده من حقائق ومعلومات عن هذه القوى الشيطانية التي تعبث بمصير العالم وبحياة البشر ضمن تنظيم عالمي خطير ومنظم والدور الرئيسي لهذه المنظمات في تدمير الأديان والسيطرة على مقدرات وثروات العالم ومنها أيضاً البروتوكولات الشهيرة سيئة الصيت (بروتوكولات حكماء صهيون)، وهناك أيضاً الكاتب شيريب سيريروفيتش صاحب الكتاب الشهير (حكومة العالم الخفية)، الذي استعرض فيه حقائق هذه المنظمات والدوائر المالية بسطوتها وجبروتها ومؤامراتها السياسية والاقتصادية الخطيرة وتغلغلها في صلب الدوائر السياسية الدولية وسيطرتها الكاملة على دوائر صنع القرار عبر دائرتها الاقتصادية الجهنمية التي تتحكم في مصائر الشعوب ومعروف مدى التأثير الاقتصادي في القرار السياسي.

والكتاب المهم والخطير أيضاً للكاتب الأميركي جيم مارس (الحكم بالسر) الذي أورد فيه حقائق مثيرة وخطيرة للتنظيمات السرية التي تحكم العالم ودورها المدمر والرهيب في المجتمع البشري لإلغاء الأديان وتمييعها والقضاء عليها، وهذا هو الكاتب الغربي يان فان هيلسينج

صاحب كتاب (الجمعيات السرية التي تحكم العالم) والذي أورد فيه بجلاء كيف يدار العالم لحساب مجموعات قوية تسيطر على مصائر البشر وتتحكم في توجهاتهم عبر السيطرة على عقولهم وقلوبهم والغاية دائماً هي تمييع وإلغاء الأديان.
لقد نجحوا بلا شك وبقدر كبير من الحقيقة في إلغاء دور الدين في المجتمعات الغربية، كما استطاعوا تنحية القيم الروحية جانباً وتمكنوا من تحويل المسيحية إلى تراث أو عنوان سياسي للمدنية الغربية فقط وللحقيقة فإن الكنيسة تتحمل قدراً كبيراً من هذا الوزر عبر تاريخها الحافل بالقهر والقمع والاستغلال والظلم وهنا نبين أن السبب الرئيسي كان الخروج على حقائق الدين وإخفائها وتشويهها من أجل مصالح دنيوية ولهذا لابد من الاعتراف بأن البعد عن حقائق وجوهر الأديان ومضامينها الصحيحة وتحريف كتبها المقدسة لأهواء ومصالح مادية ودنيوية.
أوصل العالم الآن إلى ما وصل إليه من وقوع البشرية في أفخاخ الضلال والتوجه المسعور لعبادة المادة في ظل نمط حياة اختطف قلوب البشر وعقلهم وأصبحت القيم المادية تحكم الصراع بين البشر وتديره حسب فلسفتها القائمة على القوة.
ولم يكن الإسلام هكذا على الإطلاق.

ما هو الإسلام
بداية وللإجابة عن هذا السؤال لابد من استعراض سريع وموجز لليهودية والمسيحية، وكما أشار إليها المفكر الكبير علي عزت بيجوفيتش في كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب)، وهو عمل فكري عظيم موجه بالأساس إلى غير المسلمين حيث يقول إن اليهودية بانحرافها عن العقيدة السليمة تحولت إلى دين مادي الجوهر والغاية وهذه حقيقة نلمسها في اليهود ويلمسها العالم كله.
أما المسيحية فقد تحولت عن جوهرها ورسالتها إلى دين للضمير فقط لا علاقة له بالحياة الأرضية، أما الإسلام فقد جاء حاسماً وخاتماً كدين ونهج حياة، حيث جمع بين المادة والضمير بين الأرض والسماء، بين الدنيا والآخرة، بين رغبات الإنسان وتطلعاته الإنسانية الدنيوية وحريته والفكر وبين الانضباط الروحي والإيمان وهو الأمر الذي منح الإسلام صفة المنهج المتكامل لحياة بشرية منضبطة وسعيدة وآمنة يحقق فيها الإنسان كل تطلعاته ورغباته ويرتقي بفكره ضمن إطار قيمي يحفظ العدل والتوازن الإنساني داخل نفسه وينعكس بالتالي على المجتمع كله باعتبار أن الفرد هو خلية التكون المجتمعي ليصل الأمر في النهاية إلى تكون مجتمعات إنسانية متوازنة آمنة مبدعة في كل المناحي الايجابية التي تخدم التوجهات الخيرة وتنبذ كل ما من شأنه أن يؤدي بالإنسانية إلى مسالك الردى والهلاك والشقاء ولننظر إلى الإسلام بقليل من التأمل لنرى الجانب العقدي الصغير والبسيط بالإسلام، جزءه العقدي يعتمد أولاً على الإيمان في القلب بوحدانية الخالق وصفاته وتفرده ونطق الشهادتين مع الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كل هذا مجرد إيمان في القلب وإقرار باللسان ثم الصلاة وهي المشهد اليومي الذي يصل الإنسان بخالقه خمس مرات في اليوم ليضبط إيقاع الإنسان ومسار حياته ساعة بساعة منذ بداية اليوم وحتى نهايته والصلاة هنا هي هذا الكابح العظيم الذي يوقف ويعطل كل منابع الشر في الإنسان، حيث لا يمكن لإنسان يصلي الصلوات الخمس وهو يمارس ويعيش حياته العملية منصهراً ومتفاعلاً داخل مجتمعه أن ينحو منحى الشر بسهولة ونتخيل مجتمعاً مصلياً للصلوات الخمس مع فهم لمعنى الصلاة وما يصحبها من خشوع لله والتزام بالخلق الكريم في السلوك والتعامل بين أفراده.
ثم تأتي التشريعات العظيمة لتضبط إيقاع الحياة بين الناس وعلاقاتهم وكل ما يختص بحياة أفراد هذا المجتمع مبينهم طبقاً لقواعدها وقوانينها.
ولننظر إلى الفرد في المجتمعات اللاإسلامية التي تحكمها القوانين الوضعية حيث نرى التحايل على القوانين وإيجاد وابتكار ثغرات قانونية تؤدي إلى ضياع العدل في مفهومه الحقيقي، أما في المجتمع الإسلامي فإن الفرد المسلم في المجتمع المسلم يعلم أنه إن أفلت من عقاب الدنيا فلن يفلت من العقاب في الآخرة وهو يعلم أن الله تعالى مطلع على ما يفعله ويعرف أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور كما أن المسلم يعلم يقيناً ماذا تعني شهادة الزور شرعاً والامتناع عن أداء الشهادة وما يتبعها من إثم سيحاسب عليه إن امتنع عن الإدلاء بشهادته.
إن الإسلام كمنهاج حياة نظم العلاقة حتى بين الإنسان وبيئته ومصادر عيشه بعد أن نظمها بين أفراد المجتمع ولعلنا هنا نشير إلى حماية الإسلام وحرصه على البر بالوالدين وصلات الأرحام والجيران، الأمر الذي يؤدي إلى لحمة عظيمة بين أفراد المجتمع وتراحم كبير بين أفراده. ناهيك عن النظام الاقتصادي الدقيق في الإسلام وكيفية الإنفاق وإخراج الزكاة لمستحقيها الذين عرفهم الإسلام تحديداً.
والمتأمل لهذا المنهج العظيم يدرك كيف يقف على أدق التفاصيل التي تصنع مجتمعات متراحمة ومتلاحمة تنهض في كرامة ولا نظلم بها البشر ويعمها الأمن والأمان ويستمتع كل فرد فيها بحياته آمناً مطمئناً على نفسه وأهله وماله.
إن المنهج الإسلامي العظيم يقيم حضارة تتجاوز الماديات وتعبرها إلى الأرقى ثم ترتقي بذلك إلى مراتب الإنسانية العظيمة وتلك هي المشكلة التي لا يريدها عبدة الطاغوت والمهيمنين على النظام العالمي حيث يرون في ذلك منعاً لهم من استغلال البشر ودفعاً ومنعاً لنهمهم الذي لا يشبع من دماء البشر وبلا رحمة.
وحتى أخفف الأمر على القارئ أورد هذه القصة وأنقلها نقلاً كما وردت في كتاب للدكتور/ مصطفى محمود بعنوان (الإسلام ما هو)، موضحاً إيجابيات وعورات الحضارة الغربية مع انتقاد واضح لسلبيات دخيلة أيضاً على المجتمعات الإسلامية وذلك من خلال قصة أحد الأساتذة الجامعيين المسلمين في أحد بلاد الغرب والذي تربى تربية دينية تقليدية ووصل بعلمه إلى درجة أستاذ في الكيمياء بإحدى الجامعات إلا أنه كان شرقي الفكر والروح والحياة، إسلامي العقيدة وكانت زوجته وهي عربية مسلمة أيضاً لكنها غربية العقل والهوى،حين سافرا معاً إلى إحدى الدول الأوروبية الإسكندنافية، كان الأستاذ العربي المسلم مدعواً لحضور مؤتمر علمي هناك واصطحب زوجته معه، يقول مصطفى محمود نصاً وأسمح لنفسي هنا بالاقتباس الحرفي من كتابه (الإسلام ما هو): هو دكتوراه في الكيمياء من جامعة أسيوط يحمل معه

جلافة الريف وبساطته وطيبته وهي خريجة آداب قسم سياحة تحمل معها حقيبة كريستيان ديور وتنظر دائماً غرباً إلى باريس لتأخذ عاداتها وقيمها وموضتها في حين هو ينظر شرقاً إلى مكة، تعلق القلب والفؤاد بالكتب القديمة الصفراء والمدائح النبوية وحلقات الذكر.
وهو في زيارة للسويد والنرويج مدعواً في مؤتمر علمي وهو يصحب زوجته في شهر عسل، وهما يهبطان معاً درجات الفندق الفخم في استوكهولم كلما هم بهم نزيل أومأ برأسه في تحية فتضغط على ذراعه هامة (رد على التحية بإيماءة رأسك أنت الآخر،أترى كم هم مؤدبون)... تعلم... إذا حييتم بتحية فردوا بأحسن منها... أترى النظافة حولك... كل شيء حولك يلمع... والأرض كأنها مرآة.... المواعيد بالدقيقة والثانية.... الكلمة الواحدة كأنها ميثاق... لا غش ولا احتيال ولا مكر ولا تعقيد... المرأة هنا حرة رشيدة مستقلة الإرادة تملك مفتاح عربتها ومفتاح شقتها وتخوض الحياة بلا خوف وتختار زوجها في حرية وتعمل في أي مهنة تحب... حارسها ضميرها وحده... يدها مع يد زوجها على دفة القيادة... لا رياسة لأحد على الآخر ولا تحكم ولا استبداد... لها نصف ما يملك إذا افترقا... هكذا يضمنون للمرأة مستقبلها هنا ويؤمنونها غوائل الدهر وطغيان الرجل... دستور الزوجية احترام متبادل ومساواة في الحقوق وثقة وحرية من كل طرف في الآخر ولا تدخل ولا فضول... ولا مساءلة ولا محاكمة... أين كنت بالأمس... ولماذا جئت متأخرة؟... تذكرة طائرتها في جيبها وجواز سفرها في حقيبتها... تسافر إلى آخر الدنيا وحدها، حرة رشيدة مستقلة...حارسها ضميرها وهذا يكفي... انظر حولك وتعلم... هذه هي القيم التي نحتاجها في بلدنا لنصنع بلداً جديداً وحضارة جديدة ومدنية جديدة... هذه هي فرصتك لتغتسل من أتربة الريف وتجدد شباب عقلك... وتتشرب هذه القيم العصرية... لا أحب أن أصادر تفكيرك ولكني أطالبك فقط بإعادة النظر وعدم الرفض الفوري لأي جديد،لا أحبك أن تشيح بوجهك وبيدك وتقول كلمتك التقليدية هذه دولة الكفر... فأين الكفر فيما ترى... هل النظافة كفر... هل الأمانة كفر... هل الوفاء بالوعد كفر... هل النظام كفر... هل العلم المتقدم كفر... هل الصناعة كفر؟.
ومرت امرأة بيدها كلب وأومأت برأسها في تحية، فرد صاحبنا بإيماءة أخرى من رأسه... فضغطت صاحبتنا على يده في حب وقالت وهي تلفت نظره إلى الكلب:
- أترى أصابع الكوافير كيف صففت شعر هذا الكلب والفيونكة الحمراء الجميلة... هل العطف على الحيوان الضعيف كفر... هل رأيت المستشفى الأنيق أمام الفندق... إنه مستشفى للكلاب ودار حضانة للكلاب، تترك المرأة كلبها في الصباح ثم تعود لتأخذه في المساء.
- قال الرجل الريفي وهو يهز رأسه غير مصدق:
- شيء عجيب.
- هل تعلم أن هناك أكثر من عشرين صنف لحوم معلبة للكلاب... وأن المحل يترك لك الحرية لتعرضها على كلبك ليجربها ويختار منها ما يحب.
قال الرجل الريفي وهو ما يزال يهز رأسه:
- شيء عجيب... إذا كانوا يصنعون هذا بالكلاب فماذا يصنعون لبني آدم.
- سوف ترى يا عزيزي... لا تتعجل.
- إذا كان هذا مقام الكلب في الأسرة فماذا يكون مقام الأسرة في المجتمع.
- سوف ترى بنفسك الليلة... ألسنا مدعوين معاً إلى تلك العائلة السويدية؟.
- نعم نعم... لقد دعانا الدكتور كرافت على فنجان شاي لنحدثه عن مصر وعن أخبار مصر فهو عالم في المصريات كما تعرفين.
- بل نريده أن يحدثنا هو عن بلاده وعن المعجزة الأوروبية.
- نعم صدقت.
وفي المساء كان الدكتور كرافت يمد يده ليصافحهما في حرارة وهو يقول:
- أخيراً جاءت مصر إلينا... أخيراً أصافح أحفاد حتشبسوت واخناتون يداً بيد.
فقال الرجل الريفي:
- لا أظن، فقد اختلطت الأنساب كثيراً في بلادنا يا عزيزي الدكتور بقدر ما تعاقب عليها من فرس وروم ومقدونيين وعرب وانجليز وفرنسيين، لا أظنك اليوم تجد حفيداً واحداً حقيقياً لحتشبسوت واخناتون، لن تجد هذا الحفيد إلا في مقابر تل العمارنة في تابوت سرق كل ما فيه ولم تبق إلا الجثة.
قال الرجل وهو يتنهد آسفاً:
- صحيح هذا مؤسف... لم يبق لنا إلا تاريخ ومعابد وبرديات هيروغليفية.
ورشف الدكتور رشفة هادئة من فنجان الشاي وقال:
- لو كنتما هنا أمس الأحد لسعد أبواي بكما كثيراً فهما مثلي يحبان مصر كثيراً ويتنسمان أخبارهما.
قال الرجل الريفي:
- وأين هما يا ترى؟.
- هما عجوزان لطيفان... وهما في هذه السن التي يصعب فيها التفاهم والتواصل بينهما وبين باقي الأسرة وحتى بينهما وبين بعضهما... ولهذا انتهى بهما المطاف في دار المسنين... لكل منهما غرفة منفصلة وكل منهما يقطع النهار في حل الكلمات المتقاطعة وشرب النبيذ والاستماع إلى التلفزيون ومشاهدته وهذا شأن الكبار هنا حين تتقدم بهم السن.

قال الرجل الريفي باستغراب!
- والصغار؟
- بعد السابعة عشرة يذهب كل واحد وشأنه...لي ثلاثة إخوة وأخت رابعة تفرقوا في القارات الخمس وتفرقت بهم المصائر، الأخ الأكبر تزوج من امرأة بوذية في كمبوديا، والأصغر قطعت ساقه في حادث وهو يعمل بارمان في كلكتا، والأخ الأوسط يشتغل في مصنع سلاح في جنوب إفريقيا، أما الأخت فقد تزوجت من فيتنامي ولم تنجب ثم افترقت عن زوجها... وأنجبت ولداً تكرس له الآن وقتها وتعمل مدرسة بيانو.
- وزوجها؟
- إنها لم تتزوج بعد الفيتنامي... لقد أنجبت ولداً بعد قصة حب، وكما تعلم هذه القدرات العاطفية تنتهي إلى لا شيء وتبدأ المشاكل، وهذه مسائل عادية تحدث الآن كثيراً.
- ألا تلتقون؟
- عبر بطاقات الكريسماس وهدايا عيد الميلاد كل عام، ودخل الكلب وكانت حول بطنه ضمادة.
واحتضنه الدكتور كرافت في حنان بالغ... وراح يربت على رأسه ويقبله:
- المسكين... عملنا له بالأمس رسم قلب كهربائي وفحص بالأشعة وبالأمواج فوق الصوتية، واتضح أنه يعاني من ورم سرطاني وقام الجراح منذ أسبوع باستئصال الورم بنجاح... صدقني لقد حزنت من أجله كثيراً ولم أدق طعم النوم منذ أيام.
قال الرجل الريفي وهو يقلب كفيه في عجب:
- هذا شيء مؤسف فعلاً... هذا قدره.
وراح الدكتور كرافت يسأل صاحبنا ماذا يعني بكلمة القدر وقال أنه سمع الشرقيين يتحدثون كثيراً عن القدر ويلاحظ أنهم يدسون هذه الكلمة في كل شيء... وها أنت تدسها حتى في شئون الكلاب... صدقني أنا لا أفهم.
وأخذ الرجل الريفي يتكلم في إسهاب عن الإيمان بالله وبالقدر وأن الله بيده ناصية كل الخلق وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.. سواء كانت بهيمة، كلباً أو حشرة.. وأنه ما من ورقة تسقط إلا يعلمها وما من رطب ولا يابس إلا عنده في كتاب.
وقال الدكتور كرافت في براءة «شديدة»:
- ولكن أين هو؟
- من؟
- الله الذي تقول.
فسكت الرجل الريفي وانعقد لسانه في دهشة من السؤال الفجائي ثم عاد يقول في بطء:
- الله لا يقال عنه متى ولا أين... لأنه هو الذي خلق المتى والأين... هو الذي خلق الزمان والمكان ولا يخضع لهما كما نخضع نحن... هو فوق الأين والمتى.
فبدا على الدكتور كرافت أنه لا يفهم ولكنه قال في احترام شديد:
- ألا يمكن أن نتكلم كلاماً أكثر وضوحاً وواقعية... ألا يمكن أن تقول لي عن الله شيئاً ملموساً... صدقني أني في دهشة من إيمانكم العميق أيها المصريون... إيمان بطول سبعة آلاف عام...إنه شيء عجيب يدهشني... منذ سبعة آلاف عام وأنتم تبنون للموت ولا تعيشون للحياة... ولكن لما بعد الحياة... وكأنما أنتم متأكدون تماماً من كل شيء... ألا يدهشك هذا... من أين لكم بهذا اليقين بأن بعد الموت شيء... لكم أتمنى أن أرى الله كما ترونه.
فقال الرجل الريفي في بساطه:
- إني لا أرى غيره... أراه في تفتح الزهرة وابتسامة الوليد وأراه في الصواعق وأرى مشيئته في حركة التاريخ وأرى يده في قبضة الجاذبية التي تضم شمل الكون وتمسك بالمجرات وتحمل السماوات بلا عمد... وأراه أقرب إلي من نفسي بل أقرب إلي من نطقي وأراه في العماء خلف كل شيء... في غيب الغيب... لا يوصف... سبحانه ليس كمثله شيء.
وحاول أن يبحث عن الكلمات التي تقول أكثر وتفصح أكثر وتجسد أكثر... كلمات يعبر بها الفجوة الهائلة بينه وبين محدثه ولكن لم يجد.
كانت الفجوة كبيرة فجوة بين حضارتين... حضارة لا تؤمن إلا بما ترى وتلمس وتحس وتسمع... حضارة مادية تبدأ من المادة وتنتهي إلى المادة وتشيد من المادة، معجزات وخوارق واختراعات وسفن فضائية وقنابل وتصنع بها الدمار والعمار، وحضارة أخرى تواقة حالمة متطلعة إلى الغيب تتنصت بالقلب والروح على ما لا يرى وما لا يسمع... وتعبر المادة دائما وأبداً إلى ما وراءها.
وسكت الرجل الريفي ولم يجد كلاما يقوله ليعبر به الفجوة وأخذ يعيد ما قال وكأنما يخاطب نفسه.
- إني لا أرى غيره... لا أرى إلا الله... سبحانه لا سواه.
قال الدكتور كرافت:
- إني لا أملك إلا أن أحترمك... ولكني لا أفهمك.
وفي ذلك المساء في الفراش... كان الرجل الريفي يحدث زوجته وهو يضرب كفاً بكف:
- أرأيت... إنه لا توجد أسرة... لقد انفرط كل شيء... البنت تحمل سفاحاً والأخوة تفرقوا في الأرض وأركانها الأربعة ليواجه كل منهم مصيره بلا عون ولا سند... والأب والأم منبوذان يعيشان وحيدين في دار للمسنين ولم يبق إلا الكلب أقاموه صنما بديلاً يبذلون له الود

والحب والحنان والعبادة التي خلت منها الحياة. ويحاولون أن يخلقوا فيه المعنى والحكمة التي سلبوها كل شيء... إن كل ما تشاهدينه في الفندق من تحيات ومجاملات وآداب مائدة وسلوك مهذب ولياقة... كلها تعبيرات فارغة ولا تدل على شيء ولا تحتوي على مضمون... إنها مجرد حياة تلهث وراء متع لحظية... ثم موت ثم تراب ثم عدم... ثم لا معنى... ولا حكمة... وإنما عبث.

ولم يعجب زوجته الكلام وأعطته ظهرها... وقالت كالعادة:

- لا تتعجل في الحكم... ولا تستخرج أحكاماً عامة من لقاء عابر... انظر حولك... إنك في عالم كعرائس الخيال، أبهة ونظافة وأناقة وجمالاً وعلماً وصناعة.

قال في هدوء وقد أعطاها ظهره هو الآخر:

- كل هذا يمكن أن ينهدم في لحظة... حينما تنهدم القيم التي تمسك به، كل هذا يصبح مثل النقش على الماء.

قالت في مرارة:

- وهل عندنا في مصر قيم... هل عندنا أخلاق؟

- صحيح لقد أصابت عدوى الانحلال الكثيرين في بلادنا... وصحيح عندنا فساد... ولكن ما زال عندنا بقية من أهل الخير يعرفون الله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقومون الليل ويسبحون بالنهار... وهؤلاء هم عمد الأرض وأركان الدنيا، يحفظ الله الدنيا من أجلهم وبدونهم لا يعود لنا بقاء.

قالت وهي ما زالت تنظر غرباً وقد أعطته ظهرها:

- بل أركان الدنيا هنا... ولكنك ترفض أن تراها... وأعمدة الحياة حولك ولكنك تنكرها... وناطحات السحاب تنطح السماء وتصنع الأقدار للألوف... والعقول الالكترونية تدبر المصائر للملايين... وما نسميه انحلال الأسرة هو روح الحرية... والمغامرة... ولكنك لا تريد أن ترى ولا تريد أن تغير من نفسك شيئاً.

قال وهو ما زال يعطيها ظهره وينظر شرقاً:

- نسيت أن صانع كل هذا العمار... ترك نفسه خراباً وأنه يوشك أن ينتحر وأن يقتل نفسه بما صنع... وأن عمد الدنيا في نظرك وأركان الأرض يوشكون أن ينقضوا على بعضهم البعض بالأسلحة الذرية والقنابل النووية... وأنهم لوثوا الأرض والفضاء والماء والهواء من حولهم كما لوثوا عقولهم بالمخدرات والخمور... ولوثوا أرواحهم بالكفر والجحود... وأن ما ترينه براقاً حولك هو الغرور ومتاع الغرور... وخيال اللحظة... ونشوة اللمحة البارقة... واقرئي التاريخ... وانظري خلفك... بل تحت قدميك... بل في التراب تحتك... حيث اندثرت أمم وإمبراطوريات... وحيث انتهى عمالقة طاولوا الشمس وخرقوا السماء.

ولكنها لم تنظر إلى الوراء ولم تلتفت إلى التراب تحت قدميها وإنما ظلت ناظرة مبهورة دائماً إلى الغرب... على حين ظل هو شاخصاً إلى الشرق إلى مطلع الأنوار... وقد أعطى كل منهما ظهره للآخر... وبينهما خيط رفيع... هو عقد زواج يوشك أن ينقطع.

إن هذه القصة الحقيقية التي أوردها الدكتور/ مصطفى محمود في كتابه «الإسلام ما هو» تشير بوضوح إلى الفارق الشاسع بين الإيمان وعدم الإيمان حيث الهشاشة والضعف والقابلية للضياع والتلاشي والانهيار وشقاء الإنسان وتحوله رغم أنفه إلى عبادة المادة ومغريات الحياة وشهواتها بلا ضابط ولا رابط، وبالتالي فقد أصبح المجتمع الإنساني في ظل مادية مفرطة يصنعها ثم يعبدها من دون الله مستعبداً لطغيان هذه القوة المادية تستنزفه وترهقه وتذله وفي النهاية فإن قراراً أحمق من مجموعة من البشر يستطيعون في لحظة تغيب فيها عقولهم أن يدمروا البشرية بضغطة زر، والعجيب هنا هو الألم الرهيب والقلق المرضي المرهق من جراء السعار الجامح والفهم الذي لا يشبع خلف المادة التي أصبحت هدفاً وغاية ووسيلة في نفس الوقت... لقد أصبحت معبوداً قميئا شريراً للبشر وأضحت المادة في كل صورها اختزالاً للقيم الروحية العظيمة والإيمان العميق بالإله الواحد القادر والواهب في الوقت الذي يمكن فيه أن تكون المادة والتطور المادي والتقني وكل الإيجابيات الأخرى العلمية والإبداعية جزءاً من الوعاء الحضاري الروحي الكبير والعظيم الذي يظلله الإيمان وتحميه العقيدة.

حيث العقيدة السليمة في المنهاج الإسلامي هي ضابط الإيقاع الحضاري وصمام الأمان الواقي من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وحيث تتغي هذه العقيدة العظيمة سعادة كل البشر وتقمع الظلم في نفوسهم وتضع المعايير الرفيعة للمعاملات الإنسانية والعلاقات الاجتماعية وتبني بها هذا المجتمع الإنساني السعيد الآمن.

الإسلام والحرية

من العجيب أن الكثيرين يتشدقون بقضية الحرية وضماناتها للإنسان ويرفعون شعارات براقة مغرية عن حقوق الإنسان وحريته، وأن الإسلام دين يقمع الحريات الإنسانية ويظلم المرأة من خلال نظرة قاصرة عوراء إلى التشريعات الإلهية التي جاءت لتضمن الأمن والأمان للمجتمع الإنساني بأكمله ضد ما يهدد سلامة البشر في أجسادهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم.

في الوقت الذي يتخبطون فيه على مدار الوقت لسن تشريعات وقوانين ودساتير يضاف إليها ويحذف منها في عمل متواصل لا ينتهي، وذلك في محاولة لتلافي ما ينشأ من مستجدات تهدد أمن الناس وحياة مجتمعاتهم وسلامتها ورغم كل تلك المؤلفات والمبتدعات القانونية التي لا يحصى عددها لم تنفع في حماية البشر ولا مجتمعاتهم الإنسانية من المخاطر والأهوال التي يتعرضون لها ولم تصلح شأن هذه المجتمعات، فتارة يبيحون القتل أو أحكام الإعدام للمجرمين القتلة، وتارة يلغونها ليعودوا مرة أخرى إلى إباحتها، قس على ذلك كافة أنواع القوانين الأخرى التي لم تنجح في حماية النفوس والممتلكات والأعراض من القتل والنهب والانتهاك.

لقد صنع المنهج الإسلامي العظيم توازناً دقيقاً بين نمطية حياة كريمة وتربية صالحة لأفراد المجتمع وكفل لكل أفراده، تحت مبدأ العدل والمساواة والتكافل الاجتماعي، الحق في حياة يجد فيها ما يتمناه ويحقق فيها غاياته ضمن تناغم اجتماعي يحقق للجميع حياة سليمة كريمة آمنة، ففي مجتمع إسلامي حقيقي لن نجد فاقة تعصف بفرد أو بمجموعة من هذا المجتمع ولن يوجد مظلوم لا يجد سبيله إلى حقه في سهولة ويسر، ولن نجد محروماً يحقد على الآخرين ويتمنى زوالهم وسيأمن كل إنسان على نفسه وعلى ماله وأهله. حيث ستكون المعايير هي السمو الروحي وقمع الانحراف النفسي والأخلاقي الذي ينال من الآخر وطغيان المادة داخل نفوس الأفراد وإعلاء قيم عظيمة كالعلم ومكارم الأخلاق التي نحتها المدنية الحديثة جانباً وجعلت القيم المادية والمتع الدنيوية المنحرفة وحيازة سلطان القوة والبطش معبودها الأول.

ونتساءل هنا:

ـ هل الحرية المنادى بها هي حرية الدعارة والزنا والربا والخمر والقمار والاحتكار وتكديس الأموال والقدرة على إلحاق الأذى بالآخرين وامتصاص دمائهم واستغلالهم استغلالاً بشعاً وتقسيم المجتمعات إلى نبيل وحقير؟

وإذا قلنا إن هذه حريات قننوها للمجتمعات الإنسانية، فهل الدعوة إلى الإباحة وتفكيك القيم الروحية العظيمة التي تسمو بالنفوس هي أيضاً حرية؟

لكن ألا توجد تشريعات وقوانين كما أسلفنا تحد أيضاً من حريات البشر في كل بلاد الدنيا؟

وهل يمكن لهذه التشريعات الوضعية حماية المجتمعات الإنسانية من الشرور والعورات والأمراض، وهل أمنت السلام والسلامة لأفراد هذه المجتمعات؟

والإجابة بكل تأكيد هي بالقطع لا، لم تنجح كل المنظومات التشريعية الوضعية في ضمان الأمن والسلام لأي من مجتمعاتها كما كفلتها التشريعات الإسلامية العظيمة التي تطبق وفق نهج إسلامي متكامل اجتماعي وثقافي واقتصادي، أي أنه لا يجب أن نطبق التشريعات الإسلامية في مجتمع لا ينهج الإسلام كحياة متكاملة البنيان في كل مؤسساته وعلى جميع الأصعدة الحياتية للمجتمع.

وحول قضية الحرية فإن الإسلام كدين سماوي عظيم لم يقيد حرية الفكر الإنساني إلى أقصى حدوده دون أي حواجز خاصة ما ينفع الإنسانية ويتغي خيرها ومصالحها ولننظر إلى الإشارات التحريضية الواضحة والصريحة في القرآن الكريم للحض على إعمال الفكر والعقل.

ـ {قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم}.

ـ {قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين}.

ـ {أفلا يعلمون}، {أفلا يتفكرون}، {أفلا يتذكرون}، {أفلا يبصرون}، وهناك الكثير الكثير من الآيات الكريمات التي تحمل دعوة تحريضية على التبصر والتدبر والتفكر وإعمال العقل وتلمس وسائل الرقي الإنساني وكل ما فيه خير البشرية.

وهنا أيضاً يثور سؤال آخر حول الحرية وهو:

ـ متى كان الإنسان حراً؟

ـ هل كان حراً في اختيار مولده من عدمه؟

ـ هل كان حراً في اختيار أبويه؟

ـ هل كان حراً في أن يولد غنياً أو فقيراً معوقاً أو سليماً؟

ـ هل كان حراً في اختيار لونه ومجتمعه؟

ـ هل كان حراً في اختيار قدراته العقلية وذكائه؟

إنها أسئلة فقط أطرحها على أولئك الناعقين وهم أولو مكر وذوو أجندات تعمل لغايات أصبحت معلومة ومعروفة والإنسان في المدنيات الحديثة يظن أنه حر وهو في حقيقة الأمر يقبع تحت عبودية مخيفة ومرهقة ومذلة هي عبودية المادة التي أصبح يفرط من أجلها في أغلى ما لديه وأصبحت قبلة ركوعه وسجوده وانبطاحه.

إن حرية الإنسان في المدنيات الحديثة لا تتجاوز حريته في اختيار القيم الروحية السامية وهو في نهاية الأمر معبود قابل للضياع والتلاشي. فمتى دامت المادة وخلدت لدى أي من البشر، أننا نرى بعيوننا كل يوم إمبراطوريات تزول وأغنياء وذوي جاه ومناصب يتحولون في ساعات إلى متسولين لقمة تقيم أودهم بعد أن كانوا يحكمون في مصائر الملايين وفي أرزاقهم، وها هي الحروب الضروس التي لا تبقي ولا تذر.. تحصد مئات الآلاف من أرواح الضحايا في كل مكان وتستعمل فيها أسلحة حديثة فتاكة لا تنتهي بالقتل والتدمير، بل تظل آثارها بعد

الحروب بمئات السنين تشع سمومها وتبعث بآلام المرض والتشوه والعذاب إلى البشر الآمنين. كل هذه الحروب ليست من أجل قيم إنسانية عليا ولن تكون بل هي المادة التي سعرت أوارها... من أجل الجشع والنهم البشري الذي لا يشبع... ناهيك عن الحروب الكبرى التي لم تحدث حتى الآن والتي تبدو نذرها في الآفاق وأسلحتها التي يطلقون عليها أسلحة الفناء، مكدوسة في المخازن في انتظار اللحظة التي تبدأ فيها لحظة الصفر وبداية العذاب الكبير للإنسانية كلها ولننظر إلى رحمة الله تعالى المهداة للبشر في كتابه العزيز (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) صدق الله العظيم.
ويحذرنا في نفس الوقت من طاغوت المادة وشرها وشيطانها فيقول تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً وإنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) صدق الله العظيم.
وهنا أسمح لنفسي أن أستعير مقولة اللورد (لوثيان) هذا السياسي الانجليزي المحنك والذي قالها خلال محاضرة له في إحدى الجامعات الهندية وقد وردت في كتاب بعنوان (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للسيد/ أبو الحسن الندوي من إصدارات المركز العالمي للكتاب الإسلامي بالكويت، حيث يقول لورد (لوثيان): (إن الدين الذي هو المرشد اللازم للإنسان والوسيلة الوحيدة لحصول الغاية الخلقية والشرف المعنوي للحياة البشرية كان نتيجة انحطاط سلطانه، إن فتن العالم الغربي بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات، وآمن بتأثير العلوم الطبيعية، ان الرقي المادي هو الغاية العليا والوطر الأكبر ولايزال يزيد هذا الأمر في مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليفها وكان من نتائج هذا أيضاً أنه صعب على أوروبا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقاً ينقذها من القومية داهية هذا العصر الكبرى).

طبيعة الأزمة العالمية وأسبابها

لا يختلف اثنان على ظهر الكوكب على أن الإنسانية تمر بأزمة عاتية على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية بتحولها إلى المادة كقيمة عليا وهدف أساسي وغاية الغايات لمسيرتها وتطورها. وقد استعرضنا فيما سبق كيف كان الإسلام بمنهاجه وتشريعاته وجانبه العقدي العظيم صمام أمان لمسيرة إنسانية آمنة وظافرة تعبر بها جسر الحياة آمنة إلى الجانب الآخر، أي أن الإنسانية المؤمنة تتجاوز في غاياتها الماديات إلى ما ورائها وما هو أسمى. وقد بدأ ذلك الجنوح والشطط بعد أن فقد العالم حضارة عظيمة كانت تمنح البشرية أثمن ما لديها وأغلى ما يحتاجه الإنسان في حياته ومسيرته وهي الحضارة الإسلامية بجناحيها العقدي والدنيوي ومن ثم تحول الأمر إلى الاستهانة المتواصلة بالجانب الروحي ولم يعد أمام سادة الحضارة وأتباعهم سوى التوجه صوب المعبود الجديد وهي المادية في أبشع صورها وما أدى إليه ذلك من أزمة عاتية يمر بها العالم وتغرق في طوفانها الإنسانية بأسرها ويتبدى ذلك بجلاء لكل ذي بصر وبصيرة يعيش العصر ويشهد ما تشهده بدايات القرن الحادي والعشرين وقبل أن ينتهي عقده الأول من مآس إنسانية ونذر تلوح بحروب مروعة قد تستخدم فيها أسلحة الفناء النووية والهيدروجينية.
وللحقيقة فإن الحضارة الغربية التي تسيدت العالم بنتاجها العلمي والعمراني والتكنولوجي ونظامها الاقتصادي لم تعر البعد الروحي ولا قيمه العظيمة أدنى اهتمام، كما أسلفنا، ولنلقي نظرة على العمق التاريخي لهذه الحضارة المادية والبعد النفسي للمكون الفكري الذي أنتجها وتسبب في جنوحها، حيث يعود الأمر في ذلك إلى أن هذه الحضارة الغربية القائمة هي وكما يقول السيد/ أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، ما هي إلا سليلة الحضارتين اللتين قامتا تباعاً على أرض أوروبا، وهما الحضارة الإغريقية (اليونانية) ووريثتها الحضارة الرومانية، وهما الحضارتان اللتان أثرتا تأثيراً بالغاً في فكر الإنسان الأوروبي السياسي والعقلي والمدني، كما ورثت الحضارة الغربية ممتلكات الحضارتين ونظمهما السياسية، إضافة إلى فلسفتهما الاجتماعية وتراثهما العقلي. وانطبعت فيها نفس الميول والنزعات والخصائص ولا شك أن الحضارة اليونانية كانت مثلاً رائعاً للعقلية الأوروبية والتي قامت على أساس الفلسفة والفكر عكست فيها النفسية الأوروبية ثم ورثتها وقامت على أنقاضها الحضارة الرومانية التي حملت أيضاً خصائصها وطبيعتها ووريثة فلسفتها وعلومها وآدابها وفكرها، حتى بدأت نهضتها مرة أخرى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى يكون الأمر أيسر فيها وأكثر تفصيلاً، دعونا نعرج على الحضارتين اليونانية والرومانية للتعرف على طبيعتهما وتكوينهما الروحي حتى نستطيع فهم ما يجري وأسبابه.
فمن المعروف أن اليونانيين القدامى تركوا تراثاً فكرياً وفلسفياً خصباً ومشهوداً من خلال نبوغ علماء اليونان القدامى وفلاسفتهم وحكمائهم وبنظرة تحليلية خاصة نجد أن الصفات التي ميزت الحضارة اليونانية عن مثيلاتها وروافدها من الحضارات الإنسانية القديمة التي استقت منها الكثير من فكرها وعلومها وفنونها كالفينيقية والفرعونية والآشورية، كما ذكر هيرودت أبو التاريخ كانت كالآتي:

أولاً : الإيمان بالمحسوس وتجاهل ما لا يقع تحت الحس.
ثانياً : قلة الدين والخشوع الروحي.
ثالثاً : شدة الاهتمام بالحياة الدنيوية والنهم الزائد لمنافعها ولذائذها.
رابعاً : النزعة الوطنية.

وباختصار كل هذه الخصائص تعني في صميمها (المادة)، أي أن الحضارة اليونانية كانت ذات قلب وبعد ماديين، فلم يستطيعوا أن يتصوروا الصفات الإلهية إلا في شكل آلهة متعددة نحتوا لها التماثيل وبنوا لها المعابد والهياكل. وكان كل شيء عندهم إلها، فللرزق إله وللرحمة إله وللبطش إله والقهر إله ونسبوا لها كل ما يختص بالجسد المادي ونسجوا حولها الأساطير والخرافات، كما صوروا الجوانب المعنوية المجردة كالحب والجمال وتخيلوها أجساماً وأشكالاً فصنعوا إلهاً للحب وإلهاً للجمال.

واعترافاً بالطبيعة المادية الغالبة على الحضارة اليونانية يقول العالم الألماني د/هاس في محاضراته بعنوان (ما هي المدينة الأوروبية)، حيث كان د/هاس يرى أن المدينة الغربية لم تتأثر بالشرق وأنها مدينة منفردة فيقول:
إن المدينة اليونانية هي مركز المدينة الغربية الحاضرة وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءا متناسبا وكان المثل الكامل عندهم، الجسد الجميل المناسب وليس هذا إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتداداً كبيراً وكان جل عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية، والرقص، وغيرها. وكان التثقيف الذهني الذي يحتوي على الشعر والغناء والتمثيل والفلسفة وعلوم الطبيعة لا يتجاوز حداً خاصاً حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم وكان الدين خالياً من الروحانية المعنوية لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين، أما اللون الروحي في تقاليد (أزف) وغيرها فإنما هو مستعار من الشرق ولا يصح أن ينسب إلى المدينة اليونانية.
وقد أشار العديد من العلماء الغربيين إلى هامشية الدين في اليونان ويقول (ليكي) في كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا).
إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة وكانت الحركة المصرية بالعكس من الأولى روحية باطنية ويشير إلى (أبوليس) المؤلف الروماني إلى ذلك قائلاً (إن المصريين كانوا يعظمون آلهتهم بالتضرع والبكاء وكان اليونانيون يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء، ثم يعلق قائلاً: لا ريب أن التاريخ اليوناني يصدق ذلك ويؤيده فلا نعلم ديناً من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده في كثرة الأفراح والأعياد والألعاب، فلم يكن اليونانيون يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم وكانوا يكتفون في تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية).
من خلال استعراض السيد/ الندوي لخصائص وصفات الحياة والإنسان اليوناني يتضح بجلاء ضحالة الشعور الديني وتفاهته لدى اليونان وأن المادية الفجة كانت الصيغة التي اصطبغت بها الحضارة اليونانية والمجتمع الأوروبي كله بعد ذلك، ومن ثم استندت إلى القومية أو الوطنية وأن شعار الرجل الحر (الجمهوري) في اليونان أو المستنير كان يعني الركض خلف المتع الدنيوية والشهوات الزائلة والنهم المتواصل للحياة بمسراتها ولذائذها وباستعراض ما أورده أفلاطون في كتابه (المملكة) عن سقراط وصفه لهذا الرجل الجمهوري أو المستنير وكأنما هي حالة وصف لشاب يعيش في القرن الحادي والعشرين يقول:
إذا قيل للشخص إن بعض المسرات من الرغبات الإنسانية طيبة وتستحق الاحترام وبعضها قبيح وأن الأولى هي التي يجب العمل بمقتضاها وأن تحترم، أما الأخرى القبيحة فينبغي أن نمتنع عنها ونحرمها. لم يقبل هذا الرأي الصحيح ولا يسمح بسماعه فإذا عرضت عليه الحقائق التي تبين وجاهة هذا الرأي رفض واستهزأ به وأكد أن جميع الشهوات سواء وتستحق الاحترام ولا فرق بينها، وهكذا يعيش ويقضي أيامه مرضيا شهواته التي تعتريه، فذات يوم تراه سكراناً ثملاً مصغياً للغناء، وفي يوم آخر تراه صائماً يجترئ بالماء وتارة يمارس التربية البدنية والتمارين الرياضية، وأخرى تراه كسلاناً عاطلاً عن العمل يهمل كل شيء، ومرة تراه يعيش عيشة فيلسوف وأحياناً في السياسة وينهض ويخطب وربما يمدح بعض رجال الحرب والجندية ويميل إليهم أو يشرع في التجارة لأنه يحسد التاجر الرابح. ليس لحياته نظام ولا ضابط ولكنه يعتبر هذه الحياة هنيئة ناعمة سارة ويواصلها حتى النهاية.
وكانت كما أسلفنا حضارة عنصرية قائمة على الوطنية ولم تنل دعوات بعض الحكماء من فلاسفة اليونان كسقراط وانكساغورس القائلة والداعية إلى عولمة الحضارة اليونانية ومنحها بعداً إنسانياً أي قبول، فكان نظام أرسطاطاليس الأخلاقي مبنياً على التمييز بين اليوناني وغير اليوناني وكان حب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق التي أجمع عليها حكماء اليونان، بل إن أرسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب، بل قال (إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم) وقد راجت هذه الفكرة الوطنية الضيقة في الأوساط اليونانية وتغلغلت في الأحشاء حتى إنه حين قال أحد الفلاسفة إنه لا يخص مواطنيه فقط بمحبته، بل سيكون بره وحبه عاماً لجميع اليونانيين، استغرب الناس كلامه ونظروا إليه بغضب.
الآن يجب أن نتوقف هنا لنسأل:
ـ هل كانت الحضارة الإسلامية ببعدها الإنساني العظيم تنظر هذه النظرة إلى البشر؟
وأتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:
ـ لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.
بعد قول الله تعالى:
ـ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم.
وأعود لقول الهادي البشير عليه صلوات الله وسلامه عن العصبية القبلية أو الوطنية حين يحذر قائلاً:
ـ دعوها فإنها فتنة.
وهنا مربط الفرس وعين التميز لهذا النهج الإسلامي الحضاري الإنساني العظيم حيث الإنسان هو الإنسان، كرامته مصانة وحرماته محفوظة بموجب شريعة سماء ساوت بين البشر جميعاً على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وألوانهم تحت مظلتها. كما أتذكر قوله صلوات الله عليه وسلامه وهو يقيم العدل بين الناس في مساواة لم تعرفها البشرية من قبل:
ـ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.
أما هم فكانوا إذا سرق فيهم القوي تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، لم يكن هناك فرق أبداً بين فارس ورومي وعربي، الكل سواسية كأسنان المشط، لا عنصرية ولا تمايز ولا تمييز بين البشر بسبب لون أو شكل أو جنس أو عرق.

ويستطرد الندوي في تحديده الخصائص الحضارية الأوروبية ليستعرض الخصائص التي ميزت الرومان باعتبارهم ورثة اليونان في أوروبا حيث فاقوهم في القوة والتنظيم واتساع دولتهم لكنهم لم يلحقوا بهم في العلم والفلسفة والآداب والشعر والتهذيب واللباقة والمدنية التي وصل إليها الإغريق (اليونانيون) وفي هذا يقول (ليكي):

ـ إن اليونان كانت لهم ثروة علمية ضخمة أنتجوها وزادوا فيها على مر القرون والعصور وكانت روما لا تزال في طورها الجنيني لا تملك أثراً من الآثار الأوروبية بل حتى لغتها كانت قاصرة في التعبير عن الأفكار والمعاني العالية، فغلب الرومان بتخلفهم وقصورهم في العلم وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية التي غلب على أهلها السياسة وظلوا مأخوذين بسحرهم في كل قسم من أقسام العلم فكان المؤرخون الرومان الأقدمون يؤلفون كتبهم باليونانية، واستمرت اليونانية لغة التأليف والعلم بعدما بدأ شعراء الرومان ينظمون الشعر باللاتينية.

لقد تسيدت الحضارة اليونانية، الحضارة الرومانية ووصل الأمر إلى الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع والعواطف والنزعات وأصبح الرومان يقلدون اليونانيين في كل مناحي الحياة حتى أصبح الأمر مثار تندد.

وبذلك غزت المادية والمحسوس التي صبغت الحضارة اليونانية روح الرومان الذين كانوا هم أيضاً أوروبيين ويتشابهون إلى حد التطابق في الصفات والخصائص الإنسانية، فساروا على هذا النهج المادي الذي لا يقيم وزناً لدين أو إله حيث كانوا يغالون في تقدير الحياة والتشكك في الأديان واضطراب في العقائد والاستهتار بالأنظمة الدينية وطقوسها، إضافة إلى الاعتزاز حتى الهوس بالقومية والتعصب لها مع الاعتداد بالقوة والاحترام الزائد الذي يصل لحد التقديس لهذه القوة.

وحول النزوع الديني واستهتار الرومان بهذا الجانب الروحي يقول (سيسرو): (لما كان الممثلون ينشدون في دور التمثيل أبياتاً معناها أن الآلهة لا دخل لهم في أمور الدنيا يصغي إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة).

ويقول الراهب أوغستين: (إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزؤون بهم في دور التمثيل) وبذلك فقد الدين في روما سلطانه الروحي على معتنقيه وبردت العاطفة الدينية في قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها، حيث يحدثنا التاريخ أنه لما غرق أسطول للإمبراطور (أغسطس) استشاط غضبا وحطم تمثال (نبتون) إله البحر ولما مات (جرمانيكوس) رجم الناس أنصاب الآلهة التي كانوا يذبحون عليها (تاريخ أحلام أوروبا).

وعلى هذا لم يكن للدين أي تأثير في أوروبا الرومانية لا في أخلاق الأمة ولا في سياستها ولا مجتمعها، ولم يكن يملك عليهم مشاعرهم وميولهم أو يراقب أخلاقهم ونزعاتهم ولم يكن هناك دين يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلوب بل كان مجرد تقليد اقتضت السياسة أن تبقى عليه اسماً فقط، وفي هذا يقول (ليكي):

إن الدين في روما كان أساسه على الأثرة ولم يكن يرمي إلا إلى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ومظهر ذلك أنه ظهر في روما مئات من الأبطال والزعماء والعظماء ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا أو عزوف عن ملذات الحياة ولا تسمع في تاريخ الرومان مثالاً للتضحية والإيثار إلا وتجده مبنياً على الوطنية وليس على الدين.

لقد ورثت أوروبا هذه النظرة المادية الدنيوية للحياة ونبذت الأديان وغلب عليها طابع استعمار البلدان الأخرى، ولذلك كانت أوروبا دائماً تيمم وجهها صوب الدول والشعوب الأخرى لاستعمارها واستغلال ثرواتها وقهر شعوبها، ولا يختلف اثنان في هذا العالم على أن هذه الطبيعة الاستعمارية والاستغلالية لشعوب العالم الأخرى كانت ميراثاً رومانياً واضحاً تغير أوروبا أيضاً في العصر الحديث وقد وصف العالم الألماني (محمد أسد) الذي اعتنق الإسلام هذا الأمر وصفاً دقيقاً في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق). حيث أكد أن الفكرة التي كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هي احتكار القوة لنفسها واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة روما فقط، ولم يكن رجالها والقائمون عليها يتحاشون أي ظلم وقسوة في سبيل ضمان العيش لطبقة ممتازة، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للروم فقط. إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادي للحياة والحضارة وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلي ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية.

إن الروم لم يدينوا بالدين جدياً أبداً وكانت آلهتهم التقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغريق وخرافاتهم وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة الاجتماعية التي كانت تربطهم وتوحدهم فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل في حياتهم العملية. كان لها حين يأذنوا أن تتكهن بالغيب إذا سئلت عن ذلك على لسان الكهان ولكن لم يسمحوا لها أبداً بأن تفرض شرائع أخلاقية على الناس.

ثم جاءت النصرانية لتجتاح المجتمع الروماني بعد جلوس (قسطنطين) الذي اعتنق النصرانية على كرسي الملك في الإمبراطورية الرومانية عام (305) ميلادية وحيث انتصرت الديانة النصرانية على الوثنية الرومانية عبر حروب دامية. ولكن النصرانية التي انتصرت في ساحات القتال كدين وفازت بالحكم في روما، عادت وانهزمت في حين تداخلت الوثنية الرومانية مع النصرانية فمسختها وفازت الوثنية مرة أخرى بتحريف المسيحية ومسخها وكان صاحب الفضل في مسخ النصرانية هو (قسطنطين) نفسه حامي الديانة النصرانية ورافع لواءها. وهنا يقول (درابر):

دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومانية بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ولم يخلصوا يوماً من الأيام، وكذلك كان قسطنطين الذي قضى عمره في الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في أواخر عمره عام (337)م. إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها، وكان نتيجة ذلك أن اختلطت مبادئها ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء، وهنا يتجلى الاختلاف العظيم مع الإسلام الذي قضى على الوثنية قضاءً مبرماً ونهائياً ونشر عقائده خالصة بغير غش.

ويتضح أن الإمبراطور قسطنطين الذي لم تكن نصرانيته تساوي شيئاً، لديه رأي في أن مصلحته الشخصية من أجل ملكه، تقتضي أن يوحد الحزبين والفريقين المتنافسين النصراني والوثني ويؤلف بينهما ولم يمانع الفريق النصراني الراسخ في نصرانيته في ذلك ظناً منهم أن النصرانية الديانة الجديدة ستزدهر إذا طمست ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة وسيخلص الدين النصراني في نهاية الأمر من دنس الوثنية وأرجاسها.

ولم تتمكن النصرانية الملقحة بالوثنية، بعد أن شوهت وفقدت روحها ومصداقيتها، أن تغير من السلوكيات المنحطة للرومان أو أن تبعث فيهم حياة جديدة.. حياة دينية نقية طاهرة وأن تزهر عهداً جديداً في تاريخ الرومان فابتدعت الرهبانية التي كانت شراً على الإنسانية والمدنية من بهيمية الوثنية الرومانية. ويستطرد السيد الندوي: وقد جن جنون هذه الرهبانية في العالم النصراني وتخطى حدود القياس ويبدوا أن الحديث لازال (لدراير) في عرض أمثلة من كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا) حيث يقول: أن عدد الرهبان زاد زيادة عظيمة وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس ولا يمكن الآن إحصاؤهم بدقة، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما رواه المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب، وكان الراهب (سرابين) يرأس عشرة آلاف وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر.

وكان تعذيب الجسم هو المثل في الدين والأخلاق لمدة قرنين ويروي المؤرخون من ذلك أعاجيب، فذكروا أن الراهب (مكاريوس) نام في مستنقع ستة أشهر ليقرص جسده العاري ذباب سام وكان يحمل نحو قنطار من الحديد، وكان صاحبه الراهب (يوسيبوس) يحمل نحو قنطارين من الحديد وأقام ثلاثة أعوام في بئر نزحة.

و(يوضا) ظل يعبد ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة (غير معقول كل هذا) وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ويسكنون مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ويأكلون الكلأ والحشائش، كما كانوا يعدون طهارة الجسد منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء وكان أزهد الناس فيهم وأتقاهم.. أبعدهم عن الطهارة وأكثرهم نجاسة ودنس. ويقول الراهب (أتهينيس):

إن الراهب (أنتوني) لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره، وكان الراهب (إبراهام) لم يمس الماء وجهه ولا رجله مدة خمسين سنة، وكان الرهبان يتجولون في البلاد ليختطفوا الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديرة وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً، والجمهور يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب حتى روي أن الأمهات كن يتسترن بأولادهن في البيوت إذا رأين الراهب (أمبروز) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس. (ليكي) (تاريخ أخلاق أوروبا).

لقد حكى (ليكي) في كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا) عن تأثير هذه الرهبانية في أخلاق الأوروبيين حيث قتلت فضائل الفتوة والمروءة وحولتها إلى عيوب ورذائل وتجنب الناس وزهدوا في السماحة والصراحة والجرأة والشجاعة وهجروها فتزلزلت دعائم الحياة المنزلية وعم الكنود والقسوة على الأقارب والأرحام وتحول ما يجب أن يكون حناناً ورحمة لدى الرهبان إلى قسوة على الآباء والأمهات والأولاد فيخلفونهم أمهات ثكالى وآباء أيامى وأولاد يتامى عالة يتكنفون الناس ويتوجهون إلى الصحراء همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم من عذاب الآخرة وهم كاذبون لا يبالون إن ماتوا أو عاشوا. ويورد (ليكي) في ذلك حكايات تدمي القلب وتدمع العيون.

وكانوا يفرون من النساء ويتأثمون من الاجتماع بهن وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات وأزواج أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية ولازال الكلام هنا لـ (ليكي) في كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا).

وبالطبع لم تفلح هذه الرهبانية بجنوحها وشططها أن تكبح جماح وحشرة المادية الرومانية ومغالاتها في الشهوات البهيمية، ولم تحقق أي نجاح في تخليص المسيحية وتنقيتها من لقاحها الوثني حيث إن هذا الأمر تأباه الفطرة الإنسانية السليمة ويكذبه التاريخ الإنساني. ولا يمكن إلا لنظام روحي ديني خلقي حكيم يتوافق مع الفطرة الإنسانية السليمة والصحيحة أن يصحح حياة الناس ويقيم مجتمعاتهم ولا يتصدى لفطراتهم، بل يوجهها توجيهاً نافعاً، وهكذا فعل الإسلام في هذا الشأن بالذات حيث صرف رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاعة العرب من المنافسات القبلية والتقاتل والثأر والأحقاد القديمة إلى الجهاد في سبيل الله والذود عن دينه وهديه وإعلاء كلمة الله كما صرف تبذيرهم وكرمهم وسماحتهم إلى الإنفاق في سبيل الله وحولهم من الجاهلية وعبادة الأصنام ورجس الوثنية إلى دين التوحيد النقي الخالص وأعطى النفوس حقها من النشاط والترويح وأشبع غرائزها في نظام شرعي عظيم ولم يحرمها إلا ما يضرها وينعكس على المجتمع بالدمار والخراب. وكما يشير (الندوي) إلى قول (ابن تيمية): (إن النفوس قد خلقت لتعمل لا لتترك، وأن الأنبياء قد بعثوا لإكمال الفطرة وتكديرها لا لتبديلها وتغييرها. أما النصرانية فقد حاولت عبثاً تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطبقه الفطرة الإنسانية ولا تستسيغه وحملت النفوس مالا طاقة لها به فرغبت فيه كرد فعل ضد المادية الوثنية الطاغية فاحتملته كارهة ثم تخلصت منه وثارت عليه ولم تقدر النصرانية ـ بإسرافها في الرهبانية والزهد ومصادمتها للفطرة والواقع أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعاداتهم أو أن تمسك بالمدنية الساقطة إلى الهاوية وتمنعها من التردي، فكانت الإباحية والفجور والغلو في الزهد في الرهبانية يسيران في البلاد النصرانية جنباً إلى جنب بل كانت الرهبنة في الأديرة بعيدة منعزلة في الصحاري والخلوات لا سلطان لها على الحياة.

وكانت الخلاعة والفجور والإباحية زاهرة مزدهرة في المدن والحواضر، وهنا يصور (ليكي) في كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا) الحياة في ذلك العصر وتأرجحها بين الرهبانية والفجور:

إن التبذل والإسفاق قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس ومجتمعاتهم، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والتهافت على الشهوات والتملق والنفاق في مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء والتسابق في زخارف اللباس والحلي والزينة في حدتها وشدتها، كانت الدنيا في ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى، وكانت المدن التي ظهر فيها أكثر الزهاد أسبق المدن في الخلاعة والفجور وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته، وقد ضعف رأي الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس وكأن الضمير الإنساني ربما يخاف الدين ووعيده، ولكنه آمن واطمأن لاعتقاده بأن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع الأعمال السيئة، لقد ازدهر سوق المكر والخديعة والكذب حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة.
وباعتبار أن الرهبانية وسلبيتها مصادمة للفطرة، تسرب الضعف والانحراف إلى المراكز الدينية وفسدت حتى صار فسادها يزاحم المراكز الدنيوية في فساد الأخلاق والدعارة والفجور واجتاحت الخلاعة والفجور قلب الكنيسة واتهم القسس بالكبائر والمنكرات.
ويقول الراهب (جروم) والمصدر هنا كتابه (الصراع بين الدين والعلم):
إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع وقد تباع بالمزاد العلني ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ويأذنون بنقض القانون ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد ويرتشون ويرابون، وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا (أنسونت الثامن) أن يرهن تاج البابوية ويذكر عن البابا (ليو العاشر) أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال وأنفق نصيبه ودخله وأخذ إيراد خليفته المرتقب سلفاً وأنفقه، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم ـ صراع العلم والدين.
لقد عاثت الكنيسة وبابواتها ورجالها فساداً في الأرض وظلماً لشعوب أوروبا بعد أن فقدت النصرانية جلالها ومضمونها وتعرضت أوروبا لأسوأ عهود الانحطاط في تاريخها وقمع البشر وأحرقوا على مجرد آرائهم وانتشرت الأوبئة التي فتكت بالملايين من أبناء أوروبا، كل ذلك بسبب الخروج على العقيدة المسيحية السليمة والصحيحة والتداخل الوثني والتحريف وابتداع أمور لا علاقة لها بهذا الدين الجليل.
وكانت إحدى خطايا الكنيسة التي لا تغفر والتي نتجت عن رفع القداسة عن صحيح المسيحية ورفدها بالخرافات أن رجال الكنيسة ضمنوا الكتب الدينية المقدسة معلومات بشرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية حسبما وصل إليه العلم في ذلك العصر وكانت حقائقها مؤقتة إذ أنها لم تكن أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني الذي لا يتوقف عن التطور والتغير في نظرياته وحقائقه، فبنوا على ذلك دينهم الذي أصبح عرضة للتغير بتغير الحقائق والاكتشافات العلمية، لقد خلطوا بين المقدس والبشري المحمل بالخطأ والصواب فسقط الدين ورجاله سقوطاً مريعاً.
وحين حاول العلماء كشف التزييف الديني في الكتب المقدسة وأعلنوا عدم إيمانهم بها لكذبها وزيفها قامت قيامة الكنيسة ورجالها، فأنشأوا محاكم التفتيش لمعاقبة أولئك الذين أطلق عليهم الملحدين المنتشرين في كل مكان في المدن والبيوت والغابات والمغارات والحقول، وقامت بحملة ملاحقة ومراقبة ضد الناس وبثت عيونها في البلاد طولاً وعرضاً لمراقبة أي رأي معارض للكنيسة وأحصت على الناس أنفاسهم، وفي هذا يقول عالم نصراني: إن هذه المحاكم سيئة الصيت المسماه محاكم التفتيش، عاقبت ما عددهم حوالي ثلاثمائة ألف من البشر أحرقت منهم حرقاً اثنين وثلاثين ألفاً أحياء، كان منهم عالم الطبيعة المعروف (يرونو) وقد حكم عليه بالقتل حرقاً لمجرد رأيه القائل بتعدد العوالم وبنفس الطريقة عوقب العالم الشهير (جاليليو) لأنه كان يعتقد أن الأرض تدور حول الشمس.
وهكذا اصطدم العقل الغربي بالخزعبلات والخرافات والتزييف الذي شاب الدين النصراني ومسخ حقيقته وجوهره الجليل، فانتفض على الدين وركله وكره الأديان، متخيلاً أن الدين بالمطلق ما هو إلا ما ورد من خزعبلات على يد رجال الكنيسة، فكانت ردة الفعل عنيفة وقاسية، وفي الحقيقة فإن العقل الغربي لم يبدأ تغيره ولم يكتشف الحقيقة إلا حين بدأ نور العلم يتسلل إلى أوروبا ويسطع من بلاد المسلمين وتشرق أنوار الأندلس، ونبوغ علمائها المسلمين ومفكريها، وهنا يجب أن نلقي بعض الضوء على هذه الحقيقة العظيمة التي وصلت فيها الحضارة الإسلامية إلى قمة ازدهارها وكيف أثرت في أوروبا وأزالت عن العقل الغربي غشاوة جهله وأطلقته من أسره الرهيب في غياهب خزعبلات الكنيسة لقرون طويلة.
لقد استعرضنا فترة التسلط الكنسي بعدما أفرغت المسيحية من مضمونها الروحي والعقدي واختلطت بها الوثنية وتم تزييف الحقائق الروحية وأصبح الأوروبيون يعيشون تحت ظلم الكنيسة وقسوتها بعدما جير الدين لصالح السياسة والمصالح وهو الناموس الذي تهتدي به البشرية وينتقل به البشر من عبادة المادة إلى عبادة الخالق العظيم ويتبعون هديه وتشريعاته التي تنظم حياة الإنسان الروحية والتي تهذب سلوكه وتحيي القيم النبيلة والمثل العليا والتآخي الإنساني، وبالتالي حصل الارتداد العقدي والانحراف عن جادة الهدى وسبيل الرشاد إلى مهاوي الجهل ومدارك الحيوانية.
ولم تكن أوروبا تحت تسلط الكنيسة تعرف العلوم الطبيعية بأفرعها المختلفة ولم يكن بها سوى ثلاث جامعات فقط لا تدرس سوى علوم اللاهوت الكنسية ولم تعرف يوماً سبيلاً إلى الكيمياء أو الطب أو الفلك أو الرياضيات، فقد كانت كل هذه العلوم في نظر الكنيسة رجسا من عمل الشيطان يحرق صاحبه حياً ولو كان مجرد رأي أو دعوة أو تصريح، وقد استعرضنا ما أورده السيد/ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) من مراجع أوروبية لعلماء وكتاب ومؤرخين أوروبيين كتاريخ أخلاق أوروبا وصراع العلم والدين وغيرها، كيف كان الناس في أوروبا يساقون إلى المحارق.

كان هذا في الوقت الذي ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية وأسس العلماء العرب للعلوم المختلفة كالطب والكيمياء والرياضيات والفلك وغيرها، وأشرقت بهم شمس العلم والفكر. وكانت جامعات أوروبا الثلاث بادوا في شمال إيطاليا والكوليج دي فراس في باريس وأوكسفورد في بريطانيا غارقة في طلاسم الكهنوت وتخاريفه حين بدأت مؤلفات ابن رشد وفكره العظيم تتسلل إلى أوروبا وجامعاتها، وبدأ الناس في أوروبا يصطدمون بواقعهم بعدما اكتشفوا أنهم يعيشون في ظل جهل وظلام فرضته عليهم الكنيسة ورجالها، وكان أن انتفض العقل الغربي على هذا الواقع المرير حتى أن هذه الفترة في القرن الثالث عشر والتي بدأت فيها استنارة العقل الغربي وتمرده على الجهل سميت في أوروبا الفترة الرشدية نسبة لابن رشد، والتي أسهمت بشكل كبير في تحرر أوروبا من جهلها وبدأوا يتجهون صوب العرب والمسلمين وينهلون من علومهم في كافة المجالات، وهنا سيبدأ فصل جديد في تاريخ العالم، حيث انطلاق حضارة إنسانية جديدة تطير بجناح واحد تحكمها القيم المادية وسيكون العلم سيدها دونما إيمان روحي وعقيدة تحكم صيرورة الحياة وتؤمن توجهها الخير لصالح البشرية، وبنظرة إلى الحضارة المزدهرة العظيمة التي نشأت في ظل الإسلام كدين ومنهاج حياة عظيم وحث على العلم والعمل الجاد مرفقاً بالإيمان لخير البشرية، نجد أن المسلمين قد برعوا في كافة فروع العلم والمعرفة، وهنا لابد من إلقاء الضوء على علماء المسلمين الذين أسسوا للعلوم الحديثة ونهل منها الغرب وبنى عليها ووصل ما وصل في ظل حضارة عرجاء يشعر الإنسان فيها بالشقاء والعزلة وبصقيع روحي قاتل، يبعدها عن القيم العظيمة التي تغياها الدين ومقاصده العظيمة.

الازدهار العلمي للحضارة الإسلامية

في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش تحت وطأة الجهل والتخلف والظلم البشع للسلطة الكنسية، يحرق فيه الناس أحياء بالآلاف، كانت الحضارة الإسلامية تتلألأ بأنوار ازدهارها العلمي والفكري في كافة المجالات العلمية والفكرية والمجتمعية، وبرز العلماء والفنانون والشعراء، وتجلت إبداعات الإنسان في أزهى صورها، وبالطبع كان الدين الإسلامي وقيمه العظيمة، النور والتربة الخصبة والهواء النقي الذي أنتج هذه الثمار الإنسانية اليانعة، فأسس علماؤها لكل العلوم الحديثة التي غيرت حياة الإنسان وساهمت في حل مشكلاته، وتطور نظمه الاجتماعية، وهي العلوم التي انطلق بها بعد ذلك علماء الغرب، بعد أن ركلوا الدين وأبعدوه عن الحياة واستجلبوا طغيان المادية وطاغوتها ليعبدوه، وما كان أعظم من أن ينضبط العلم والعلماء تحت مظلة الدين القويم الذي شرعه الله ليكون نبراساً تهتدي به البشرية في ظلام ماديتها، ولكن لأن الوثنية تداخلت مع الدين وغلبت النزعة المادية الكامنة في النفس الغربية، وأخرجت النصرانية كدين جليل من سياقه النقي الخالص، كانت النتيجة ما نشاهده الآن وما يعيشه الإنسان. وكما أسلفنا من قبل نورد أقوال بعض المفكرين الغربيين الذين انتبهوا بعد فوات الأوان لهذه الخطيئة الكبرى، فيقول لورد لوثيان «إن الدين هو المرشد اللازم للإنسان والوسيلة الوحيدة لحصول الغاية الأخلاقية والشرف المعنوي للحياة البشرية، وكان نتيجة الانحطاط في سلطان الدين أن فتن العالم الغربي بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الطبقات أو الأجناس وآمن تحت تأثير العلوم الطبيعية أن الرقي المادي هو الغاية الأكبر ولايزال يزيد هذا الأمر في مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليفها، وكان من نتائج ذلك أيضاً أنه صعب على أوروبا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقاً ينقذها من القومية داهية هذا العصر الكبرى».

ويضيف البروفيسور «جود»، وهو مفكر إنجليزي آخر، قوله:

« إن العواطف التي هي مشتركة بين البشر والتي يمكن إثارتها بسهولة، هي عواطف المقت والخوف التي تحرك جماعات كبيرة من الدهماء، بدل الرحمة والجود والكرم والحب، فالذين يريدون أن يحكموا الشعب لغاية ما لا ينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه ويوجدوا له ما يخافه، وإذا أردت أن أوحد الشعب ينبغي أن أخترع لهم عدواً على كوكب آخر ـ على القمر مثلاً ـ تخافه هذه الشعوب، فلم يعد من دواعي العجب أن الحكومات القومية في هذا العصر، إنما تقاد بعواطف المقت والخوف، فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها».

ويقول «لويد جورج» تعليقاً على الحروب الكبرى التي أثارتها أوروبا:

«لو رجع المسيح إلى العالم لما عاش إلا قليلاً، إنه سيرى الإنسان لايزال بعد ألفي سنة شغوفاً بالشر والإفساد والقتل والفتك ببني جنسه، بل إن أكبر حرب في التاريخ (الحرب العالمية الثانية)، قد استنزفت دماء الجسد الإنساني، وأهلكت الحرث والنسل، حتى أصابت الناس مجاعة، وماذا يرى السيد المسيح يا ترى؟ هل يرى الناس يتصافحون كالإخوان والأصدقاء؟، لا، بل يراهم يتهيأون لحرب أشد هولاً من الأولى وأعظم فتكاً وتعذيباً، ويراهم يتسابقون في اختراع الأسلحة الجهنمية ويبتدعون وسائل التعذيب».

هل كان الإسلام بمنهاجه وشرعه ونظامه ونبله ليقبل ذلك؟، وهل كان علماء المسلمين الذين برعوا في شتى ميادين العلم والمعرفة سيسمحون بإنتاج واستحداث ما يعذب البشرية؟، وهل كان علماء أوروبا ليقبلوا بذلك لو أنهم مسلمون ترتبط قلوبهم بالخالق وصحيح العقيدة فيما تعمل عقولهم لإنتاج ما يفيد البشرية؟، وهل كان المفكرون الأوروبيون يبتدعون نظريات سياسية واجتماعية قاصرة وعرجاء تتسبب في إثارة الحروب والدمار والقتل والتشريد وتزيد عذابات البشر، لو أنهم مسلمون أو حتى نصارى حقيقيون، يؤمنون بتعاليم المسيحية النقية الخالصة، باعتبارها هدياً سماوياً يتغي الرحمة للبشر وتحريرهم من استعباد وطغيان المادة التي أشقت الإنسانية بسرابها البراق وشرها المستطير، وحتى لا نبتعد عن جوهر قضيتنا وطرحنا نتساءل ونحن نرنو إلى هذا الازدهار العلمي والفكري الذي أضاء العالم منذ أربعة عشر قرناً بعلومه وفكره وانعكس على العالم بأسره وتعيش البشرية في رغده الآن.

هل كان الإسلام عائقاً للعلم والفكر؟ كما يقول المتنطعون المبهورون ببريق السراب المادي للحضارة الغربية الذين جهلوا وعموا وصموا عن حقيقة أن الحضارة الإسلامية وفي مطلع أنوارها، أهدت البشرية بالأسس العلمية لما يستمتع به الإنسان الآن من نتاج علمي وتكنولوجي وما

تخلفها بعد ذلك إلا لاختطاف الدين وتسييسه وتجييره لصالح الحكام الذين كان جل همهم الحفاظ على مغانمهم ونظرتهم الضيقة والقاصرة لمستقبل الأمة.

وهنا نذكر بعلوم المسلمين، وهذا هو علم الكيمياء الذي تقوم عليه الحياة البشرية تقريباً، ولننظر إلى أسماء المنتجات التي مازالت تدرس في جامعات الغرب بمصطلحاتها العربية ككلمة الكيمياء نفسها، والقلوي والصابون والكحول والغاز والزعفران والرانق والسبرتو والإكسير والكبريت والتونيا والبورق والانتيموني والعطر والنفط والقرمز وغيرها، ومازالت تدرس تحت هذه الأسماء وأن علماء المسلمين هم الذين توصلوا إلى الأوزان الذرية للمعادن وهم الذين بدأوا العلم التجريبي في المعامل والمختبرات، واكتشفوا العديد من المواد والمعادن واستخلصوا العديد من المركبات الكيميائية كالقلويات والنشادر والزرنيخ وكربونات الصوديوم ونترات الفضة والصودا الكاوية والكثير غيرها من المواد الكيميائية، وقد طوروا عمليات كيميائية هامة وأساسية كالتبلور والترشيح والتسامي والبلورة والتقطير والتكليس والتذويب.

إن البيروني وجابر بن حيان وابن سينا والرازي والمجريطي وغيرهم وعلى رأسهم خالد بن يزيد بن معاوية، وهو وريث أموي للحكم، لكنه كان شغوفاً ومهتماً بالعلم، فدعم العلماء وشجعهم فأبدعوا ووضعوا الأساس لعلم الكيمياء المعروف اليوم، واكتشافات هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين نشأوا في ظل دين التوحيد الذي أسس لحضارة أضاءت الدنيا بالعلم والإنسانية.

وأشير هنا إلى صناعة الورق وكيف توصل علماء المسلمين إلى طرق بسيطة واقتصادية رخيصة لإنتاج الورق، ولقد كان هذا النتاج العلمي العظيم الذي يكفي حضارة العرب المسلمين فخراً لأنه بالورق أضاءت المعرفة عقول البشر وأصبح الكتاب والمعلومة في متناولهم، ومن المضحك أن الأوروبيين يحاولون طمس حقائق هذا الدور الحضاري العلمي العربي الإسلامي العظيم، ومنها نسبة صناعة البارود للصينيين وهم يعلمون يقيناً أن العلماء العرب هم من صنعوه، كما أسسوا مصانع متقدمة للأصباغ المختلفة ودبغ الجلود واستخلاص الأصباغ من النباتات وأسرار الكيماويات المثبتة للألوان، وصناعة الزجاج العادي والملون والقوارير المختلفة والمصابيح، وهناك الكثير من الإنجازات العلمية العظيمة التي تضع علماء العرب المسلمين في الصف الأول لعلماء العالم منذ فجر التاريخ، قبل أن تفيق أوروبا من غفلتها أيضاً على يد المسلمين وبسبب فكرهم وعلومهم وترتقي لترد الجميل لهذه الأمة سباً وشتماً في الهادي البشير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أليسوا هم من توصل للعمليات السهلة والبسيطة لمعالجة المواد كيميائياً والتي لا تزال قيد العمل والاستخدام حتى وقتنا هذا، كالتقطير والملغمة والتسامي والتكليس والتبلور والترشيح.

أليسوا هم أول من استخدم الميزان حرصاً على الدقة العلمية، وأليسوا هم أصحاب النظريات العلمية الخالدة كتكوين المعادن وقوانين بقاء المادة والاتحاد الكيميائي وتحويل المعادن الوضيعة إلى ثمينة واختلاف درجة غليان السوائل.

ألم تكن كتب جابر بن حيان مرجعاً علمياً لعلماء الدنيا وأوروبا خصيصاً حتى منتصف القرن الثامن عشر والذي نهل منها وبرز علماء غربيون كجاليليو وهولميارد ولافوازييه وغيرهم، ولولا أبحاث ابن حيان هذا العربي المسلم لتحتم على علماء الغرب أن يبدأوا من حيث بدأ هو قبل ألف عام. لقد كان نتاجه العلمي أسطورياً إذا قيس بالنتاج العلمي لعلماء القرن العشرين، فقد وضع إحدى وعشرين كتاباً كانت الأساس لعلم الكيمياء في العالم كله، وانطلقت من خلالها ثورة العلوم في أوروبا، ألم يجمع مؤرخو العلوم على أبو القاسم المجريطي عالم الكيمياء العربي المسلم أنه كان حجة عصره ولقب بكيماوي العرب، وألم يكن الرازق أبو التجريب وأبو المنهج البحثي التجريبي في الكيمياء.

وهذا هو ابن سينا سيد أطباء التاريخ يقدم للعالم كتاب الشفاء الذي نقله الغربيون إلى اللاتينية والقانون في الطب فأسس لثورة العلوم الطبية في العالم.

وهذا هو العالم الشهير «فون ليبمان» يقول: إن علماء العرب الذين برزوا في علم الكيمياء يزيد عددهم على ستين كيميائياً عاشوا بين القرنين الثامن والرابع عشر للميلاد، ويشيد بدور علماء العرب والمسلمين العظيم في تأسيس قواعد علم الكيمياء في العالم.

وهؤلاء هم علماء الطبيعة االمسلمون الذين أسسوا لعلم الفيزياء في العالم وأرسوا أسسه وقواعده كابن الهيثم وابن سينا والكندي ولن ينسى الأوروبيون أنهم كانوا يدرسون بحوثه العلمية في جامعاتهم حتى بدايات القرن السابع عشر.

وهذا هو البيروني والخازن في علوم الجاذبية وقوانين الحركة، وهؤلاء أبناء موسى ابن شاكر الذين برعوا في علوم الهندسة الميكانيكية، وكتبهم التي تعتبر الأولى في الهندسة الميكانيكية، وموسى بن شاكر نفسه الذي بنى مرصده الكبير على شاطئ دجلة وسامراء وقاس محيط الأرض، وهذا هو الكندي العالم والفيلسوف الذي ترجمت أعماله إلى اللاتينية ونهل منها الغرب علومه ومصنفاته التي بلغت 240 بحثاً في الفلك والهندسة والحساب والطب والأبعاد وعلم النفس وغيرها، والذي يعده الغرب أحد اثني عشر عالماً أسسوا للفكر الإنساني في العالم عبر التاريخ.

وهل نسوا ابن الهيثم وبحوثه العظيمة في علوم البصريات والرياضيات وليسألوا كيبلر الفلكي الأوروبي الشهير عن أستاذه ومعلمه.

وهذا هو الخازن، عالم الفيزياء المسلم الذي يعتبره مؤرخو العلوم أستاذ الفيزياء لجميع العصور وكتابه الشهير «ميزان الحكمة» في علوم الميكانيكا والفيزياء والإيدروستانيك، وكتب أخرى متعددة في مجال التصور والوزن للمعادن والأحجار الكريمة.

وهذا هو العلامة نصير الدين الطوسي الذي كان من أنبغ علماء الإسلام والذين لقبوه بالمحقق، ونبوغه في الرياضيات والفيزياء، وهذا هو قطب الدين الشيرازي بنتاجه العلمي في الفلك والفيزياء التي ساعدت علماء أوروبا على النهوض بها من وهدة الجهل والتخلف لتمسك بناصية العلم دون الدين.

ومن العجيب أن الشيخ الرئيس ابن سينا هو أول من اكتشف القانون الأول من قوانين الحركة الثلاثة والتي ينسبها الأوروبيون كلها إلى نيوتن زوراً وبهتاناً ونحن نتكلم هنا عن ابن سينا الفيزيائي وليس الطبيب.

وهذا هو ابن الشاطر (أبو الحسن علاء الدين الأنصاري) الدمشقي الذي صحح نظرية بطليموس الخاطئة حول الأرض ومركز الكون وحركة الأجرام السماوية، وهذا هو التباين الذي عدل النظريات الرياضية والفلكية اليونانية وترجم الأوروبيون أعماله إلى اللاتينية في الفلك.
وهذا هو الرياضي والفلكي أبو الوفاء وكتبه العظيمة في الفلك والرياضيات والهندسة والذي أطلق اسمه على إحدى فوهات البراكين على سطح القمر تخليداً وتمجيداً لذكراه.
وهذا هو ابن يونس أستاذ جاليليو وابن يونس هو مبتكر الوسائل الحديثة التي أدت في النهاية إلى علم اللوغاريتمات ومعادلاته المدهشة في حساب المثلثات.
وهذا هو ابن أحمد الذي صنع ثورة في علم الرياضيات باختراعه الصفر الذي فتح الباب أمام علوم العصر واكتشافاته، خاصة الكمبيوتر.
وهذا هو الخوارزمي الذي ينطق الأوروبيون اسمه على علم اللوغاريتمات Algorism ومؤسس العلم الرياضي العربي الأصيل، الجبر.
وهذا هو ابن قرة وأبو كامل المصري والكرضي وعمر الخيام وابن الهائم أبو العباس والبورجاني الذين برعوا وأضاؤوا العالم بعلم الرياضيات، وفي علوم الجغرافيا وهذا هو الإدريسي الذي ترجمت كتبه وأعماله إلى العديد من اللغات واقتنتها مكتبات روما وباريس ولندن وتعلم الأوروبيون على يديه.
وهذا هو ابن ماجد العماني والاصطخري والحموي وابن جبير وابن صوقل، وفي علوم النبات والحيوان هذا هو الدينوري أبو حنيفة وابن سينا الذي خصص جزءا مهماً من كتابه الشهير القانون للنباتات والأعشاب.
وابن جلجل فخر حضارة العرب في الأندلس في علم النبات، إضافة للطب والصيدلة وابن وافد الأندلسي الذي تتلمذ الأوروبيون على يديه وترجموا معظم أعماله ونتاجه العلمي في مجال الزراعة والنبات.
وهذا الغافقي الأندلسي أحد كبار علماء الطب والنبات وكتابه الشهير «الأدوية المفردة» ونسخه الموجودة في جامعة أوكسفورد.
والبغدادي موفق النابغة في علم النباتات والأدوية ومؤلفاته التي وصلت إلى مائة وثلاثين كتاباً واهتمام العلماء الغربيين بها.
وابن الرومية وكتابه النادر في النبات «الرحلة النباتية» ومرجعيته العلمية العظيمة.
وبشير الدين الصدري وكتابه «المصدر» والذي يعتبر الأول باللغة العربية، و»المصدر» والذي يعتبر مؤسس علم النبات الحديث.
وأبو زكريا بن العوام الأندلسي وكتابه العظيم «الغلام» الذي بهر علماء الغرب.
وهذا ابن البيطار الأندلسي تلميذ العالم النباتي الكبير أبي العباس أحمد بن فرح وكتاباه القيمان «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» و»المغني في الأدوية المفردة»، والذي سماه علماء أوروبا أبو علم النبات.
وهذا هو القزويني ونتاجه العلمي العظيم، خاصة كتابيه الشهيرين «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» و»آثار البلاد وأخبار العباد»، وفي علم الحيوان كان لعلماء العرب والمسلمين اليد الطولى في هذا الميدان ومنهم: الجاحظ، الذي اطلق عليه إضافة إلى الألقاب الأخرى الأدبية والشعرية «رائد علم الحيوان».
كمال الدميري وكتابه الشهير «حياة الحيوان الكبرى» والذي يقع في جزءين، وقد اطلق عليه بوفون العرب لعلمه ومنهجه.
وهذا ابن مسكويه عالم الأحياء (البيولوجي) وكتاباه الشهيران «الفوز الأصغر» و»تهذيب الأخلاق» والذي قسم فيهما مراتب الكائنات الحية وتسلسلها. وهو أول عالم في التاريخ يتحدث عن دور البيئة وتأثيرها في عالم الأحياء.
وهذا هو الأصمعي الذي نشر كتابه «كتاب الوحوش» وغيره من الكتب في علوم الحيوان «خلق الفرس»، «الإبل»، «الحمام والعقارب والحيات»، «النملة»، «النوادر وغيرها في أوروبا والعالم».
وهذا الخزرجي البصري ومؤلفاته العظيمة حول الحيوان والنبات. وهذا هو السجستاني ومؤلفه الشهير «النحل والعسل» و»الطير» و»الحشرات» وغيرها.
وفي الطب والصيدلة: لم يكن لويس الحادي عشر ملك فرنسا مضطراً إلى دفع مائة ليرة ذهبية واثني عشر ماركاً فضياً ليستعير كتاب العالم العربي الفذ أبي بكر الرازي إلا ليتعلم هو وعلماء مملكته الفرنسية ولينهلوا من العلم العربي الإسلامي الذي يتهم بالإرهاب زوراً، ومن العجيب أنهم وحتى اللحظة مازالوا ينطقون مصطلحاتنا الطبية العربية بنفس اللغة العربية كالإكسير والشراب والمعجون والسنبل وحكيم ومريء ونخاع وغيرها.
إن المتابع لتاريخ الصيدلة وهو أقدم العلوم، لابد أن يرجع الفضل لقدماء المصريين والبابليين والهنود والصينيين، ولكن علماء العرب المسلمين هم الذين وضعوا الأساس العلمي العظيم لعلوم الصيدلة، لقد استخدم قدماء المصريين العقاقير النباتية كالينسون والأبنوس وبذور الكتان في النسيج ولفروع وبذر الخس وحبة البركة والحناء والزعفران والسمسم والعشرات غيرها من النباتات الدوائية، كما استخرجوا أدويتهم أيضاً من الحيوان كالجراد والكبد والقرون وعسل النحل ولبن الحمار والشمع ورحم الكبد ودمها وروثها.
واستخرجوا أيضاً الأدوية من المعادن كالجير المطفأ والكحل والحديد والرصاص والجبس وكبريتات النحاس وكربونات الصوديوم وغيرها من المعادن الأخرى.
ومن المعروف تاريخياً فضل قدماء المصريين على اليونانيين في علم الصيدلة والأدوية، حيث عالجوا العديد من الأمراض كأمراض العيون والدماغ والأنف والأذن والشعر والفم وأمراض الثدي والكبد والأمعاء وأمراض النساء والشرج والمسالك البولية والباطنية ووصفوا لكل مرض دواءه.

وقد كان للطب النبوي شأن عظيم في تحديد أنواع عديدة من النباتات الدوائية لعلاج العديد من الأمراض ووصف خصائصها، وفي ظل الحضارة الإسلامية تم تقنين العمل الصيدلاني مهنياً واستحداث سلطة مراقبة للتفتيش الفني والصحي يتولاها المحتسب، وقدم العالم والطبيب العربي المسلم ابن سينا في مرجعه الطبي «القانون» ما يزيد على سبعمائة وخمسين عقاراً مستخرجة من النباتات استخدمها الأوروبيون بعد ذلك في علومهم الصيدلانية وفي علم النبات وظلت أسماؤها العربية أصيلة في كل لغات العالم كالكافور والعنبر والتمر هندي والزعفران وعود الند والمسك والصندل والحشيش والكثير الكثير من هذه النباتات.

وهذا حنين ابن إسحاق العراقي المولد وسليل أسرة عملت بالصيدلة ومؤلفاته المتعددة في الطب والصيدلة.

وهذا هو الماردیني البغدادي وموسوعته الشهيرة «كامل العقاقير» الواقعة في اثني عشر جزءاً والذي كان يدرس في أوروبا وقد لقبه الأوروبيون بـ «الصيدلي الأول».

وهذا هو الجراح الأندلسي الزهراوي وموسوعته الطبية بعنوان «التصريف لمن عجز عن التأليف» وقد ترجمت موسوعته إلى اللاتينية وظل ينهل منه علماء العالم كله وأوروبا على وجه الخصوص.

وهذا هو الصيدلاني أبو عبدالله التميمي ببراعته في تركيب الأدوية. وهذا هو أبو الحسن الطبري صاحب الموسوعة الطبية الصيدلانية الشهيرة «فردوس الحكمة» التي تعتبر أول موسوعة طبية شاملة لعلوم وفنون الصيدلة والطب.

وهذا هو فيلسوف العرب كما أسماه الأوروبيون، العالم العربي «الكندي»، لقد كان الكندي أعجوبة عصره في الفكر والفلسفة وصاحب النظريات الهندسية التي اعتمدها العلماء لفنون البناء وشق القنوات في بلاد الرافدين، وقد كان الكندي صاحب أول نظرية في علم النفس تعتمد الموسيقى في علاج الاكتئاب، وهو الأمر الذي ينادي به الآن في حقل الطب النفسي.

وهذا هو الصيدلي العربي الشهير والذي قدمناه سابقاً في الكيمياء أبو بكر الرازي الذي أسس للعلاقة الأصيلة بين علمي الطب والكيمياء، ودعا إلى فصل علمي الطب والصيدلة عن بعضهما.

إننا نذكر العالم فقط بأن العرب وعبر علمائهم هم أول من استخدم نظرية المضادات الحيوية ومنهم الرازي الذي كان يستخدم عفن الخبز في عقاراتهم لعلاج الجروح، وها هي أوروبا تنسب الفضل لباستير وجوبرت في اختراع البنسلين من عفن الخبز.

وهذا هو علي بن عباس الأهوازي الملقب بالمجوسي وهو سليل عائلة زرادشتين إلا أنه كان مسلماً ومن أئمة المسلمين وكتابه المرجع لعلماء العالم «كامل الصناعة الطبية»، والذي أدهش العلماء بقدرته التوثيقية ومنهجيته العلمية في الطب والصيدلة وأحد التجريبيين المعلمين الكبار، وهذا ابن الجزار القيرواني وكتابه المختصر «زاد المسافر وقوت الحاضر»، الذي ترجم إلى اللغة اليونانية وكتبه الشهيرة الأخرى في الطب ككتاب «قوت المقيم» وفي الصيدلة كتاب «البغية» وقد ترجم الغرب كتبه، خاصة كتاب «زاد المسافر» إلى اللغة اللاتينية.

وهذا هو العملاق العالم الطبيب المسلم الشهير ابن سينا ونهجه العلمي العظيم القائم على التجريب والقياس والذي أسس مع باقة العلماء المسلمين للنهضة العلمية الحديثة في العالم، لقد ابتكر ابن سينا وتوصل إلى ما يربوا على ثمانمائة تركيبة دوائية ظلت الأمة الإسلامية وبعدها أوروبا تعتمدها في العلاج الطبي زمناً طويلاً.

وهذا أبو الريحان البيروني الفلكي والطبيب والعالم في الفيزياء والرياضيات والصيدلة والفلسفة وأحد مؤسسي علم حساب المثلثات في تاريخ البشرية، هذا العالم المسلم عربي اللسان والقلم والذي روي عنه وهو في آخر ساعات عمره على فراش المرض وكان أحد أصدقائه الذين ناقشوه في إحدى المسائل يوماً يزوره فسأله البيروني عن ذلك الموضوع الذي ناقشوه يوماً فقال له صديقه:

ـ هل يجوز ذلك وأنت في هذه الحالة من المرض؟

فأجابه البيروني قائلاً:

ـ يا صديقي أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة خير لي أن أودعها وأنا جاهل بها، وحدث الحوار بينهما حول تلك المسألة حتى اقتنع البيروني وودعه صديقه وغادر وفي الطريق سمع الصديق خبر وفاة البيروني.

إن كتابه الشهير «كتاب الصيدلة في الطب» يعتبر أحد المراجع العلمية العليا في حقل الطب والصيدلة والعقاقير.

وهذا هو المفكر والفيلسوف وعالم النفس الأندلسي الشهير الذي بهر الغرب بنتاجه الفكري والفلسفي (ابن باجه)، حيث كان تلميذاً نجيباً لأسلافه من العلماء العرب العظام عبر دراسته لنتاجهم العلمي كابن سينا والفارابي والغزالي وكان علماء عصره يساوون بينه وبين الفارابي في العلم والفكر، وهو من الرعيل الأول الذي فصل العلم كمنهج دنيوي تجريبي عن الدين باعتباره الوعاء الأكبر والمحيط الأخلاقي والروحي الأشمل، لقد كان ابن باجه رحمه الله علامة فارقة في تاريخ نهضة العرب وحضارتهم، تعلم منه الغرب ونهلوا من فكره كما نهلوا من علمائنا الآخرين، وبعلمهم وفكرهم نهضوا بحضارة مدنية يعيشها العالم الآن.

وهذا هو أمين الدولة (أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء)، وكان نصرانياً، ولكنه كان طبيباً ماهراً وصاحب الإنتاج العلمي في الطب والصيدلة الذي نهل منه الغرب وكانت كتبه في الطب عظيمة الأثر ولقبوه بجالينوس زمانه وسلطان الحكماء وأبو قراط عصره، وله في مجال الطب والصيدلة حوالي ستة عشر كتاباً.

وهذا هو الغافقي أبو جعفر الأندلسي صاحب كتاب الألف صنف من الأدوية البسيطة في كتابه الشهير «كتاب الأدوية المفردة» ويعتبر الغافقي أحد مؤسسي علم الصيدلة الحديث.

وهذا هو الشريف الإدريسي المغربي الأندلسي التلميذ والعالم القرطبي العظيم، وهذا هو العالم العربي اليهودي موسى بن ميمون التلميذ النجيب لعلماء قرطبة والطبيب الشهير لصلاح الدين الأيوبي وابنه من بعده وكتابه الشهير «شرح أسماء العقاقير» والذي اعتمد فيه على ما

ورد في كتب «شرح العقار» لابن جلجل، وكتاب «الجامع» للغافقي وكتاب «الأدوية المفردة» لابن جامع، وقد ميز ابن ميمون أيضاً اهتمامه بالطب النفسي وهو الذي وجه اليهود لتتبع آثار الفكر العربي الرشدي والذي اهتم به اليهود كثيراً.
وهذا هو العشاب الشهير ابن البيطار الأندلسي، وكتبه العلمية العظيمة في مجال الصيدلة «المعنى في الأدوية المفردة» و»الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، لقد ترجمت كتبه إلى الست لغات الأوروبية، وليسألوا عن ابن البيطار مكتبات وجامعات باريس وإيطاليا وشتوتغارت في ألمانيا.
لقد صنع ابن البيطار كسابقيه ثورة علمية وكان أحد الأعمدة الإسلامية التي نهضت عليها المدنية والعلوم الأوروبية الحديثة.
وهذا هو اليهودي كوهين العطار، واسمه الحقيقي أبو المنى داود بن أبي النصر الهاروني، وكتابه الشهير في الصيدلة «منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال الأدوية النافعة للأبدان»، والذي يعتبر مرجعاً علمياً موثوقاً للصيادلة في أعمالهم العلمية، وقد توصل خلال بحوثه إلى نتائج علمية باهرة أثرت المكتبة الطبية في العالم الإسلامي ومن بعده أوروبا وكان يعيش في مصر وتحتوي كتبه مكتبات انجلترا واستنبول والهند وإيطاليا.
وهذا هو العالم المسلم الجليل داود الأنطاكي، الذي أسلم الروح في مكة المكرمة خلال أدائه فريضة الحج وشهرته العظيمة في مجالي الطب والصيدلة، وكتابه المرجع «البهجة والدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة»، وكان داود يعيش في مصر وقد وضع قواعد أساسية في صناعة الدواء وطرق العلاج الطبي وتذكرة ابن داود الشهيرة يعرفها العامة حتى اليوم في مصر.
لقد استعرضنا فيما سبق الكوكبة العظيمة من علماء المسلمين الذين عكسوا عظمة العلم والازدهار العلمي في ظل الإسلام، هذا الدين العظيم والمنهج الرباني الكريم وهديه للبشرية، وهنا نتساءل: ألا يعكس هذا النتاج العلمي العظيم، الذي أثرى الإنسانية عظمة رسالة الإسلام الذي بُعث به الرسول الأكرم محمد صلوات الله عليه وسلامه.
ألم يكن الإسلام كدين ومنهاج حياة هو الحاضن العظيم لهؤلاء العلماء، وهو صانع المناخ الاجتماعي والإنساني الذي احتواهم؟، أليس الإسلام بذلك النتاج الحضاري العلمي العظيم هو الذي أسس للحضارة العلمية والتكنولوجية للقرن العشرين وما بعده وما وصل إليه من تكنولوجيا متطورة في شتى ميادين المعرفة والعلوم؟، هل كان العالم انشتاين صاحب نظرية النسبية وما تبعها من نتائج كانت في جزء منها سببا لشقاء البشرية ووعداً باحتمال هلاكها بسبب الأسلحة النووية ونظريات الكتلة والطاقة، هل كان إينشتاين ليصل لنظريته؟، لن أقول لولا الفيزيائيين العرب المسلمين، ولكن أقول فقط لولا اختراع الصفر الذي فجر ثورة في علم الرياضيات وبه إلى التكنولوجيا الرقمية، إن الرؤية القاصرة العوراء والعدائية للإسلام والعرب النابعة من الجشع المادي والتي تحاول طمس حقيقة تاريخية لا ينكرها إلا جاهل أو أحمق تمثل خللاً خطيراً في البنية الفكرية الكونية، كونها تضرب الجانب الإيجابي الخير في الحياة البشرية لصالح الجانب الشرير المظلم، وهذا يمثل في حد ذاته خللاً أخلاقياً بشعا يمهد لسقوط إنساني مروع.
أليس هذا هو الإسلام ومجتمعه العظيم الذي عاش فيه اليهودي والنصراني والمجوسي والهندوسي وبرعوا مع نظرائهم المسلمين في مختلف جوانب العلوم وأفرعها وألا يدل ذلك على تسامح عظيم وقواعد أخلاقية تتضاءل أمامها شعارات حقوق الإنسان الذي تتآكل حقوقه مع كل شعار يرفع في قرننا الحادي والعشرين.
إن هذه الأمة التي قطنت المربع الجغرافي الذهبي بين مصر والشام والعراق ومكة المكرمة، والتي نشأت وقامت بها أعظم حضارات إنسانية في التاريخ أثرت البشرية كلها وغذت نشوء حضارات اليونان والفرس والهنود وعلمت أوروبا لغاتها، أمة خلقها الله لرسالة سامية تؤديها منذ عشرة آلاف عام بدأت مع تعليم البشرية ثقافتها الإنسانية، ثم تلقت الوحي في فلسطين ومكة ومصر لتنقل رسالات الهدي السماوي إلى البشرية كافة.
إن أوروبا التي تكلمت لغاتها واكتشفت عقلها على أيدي شعوب العراق ومصر والشام، أهديت مسيحيتها بأيدي هذه الشعوب أيضاً، ومن خلالها هذه المسيحية التي ضيعوها وطمسوا حقيقتها بضلال ماديتهم وولوغهم في البعد عن القيم الروحية الحقيقية، وحين سقطت أوروبا في وهدة الجهل والتخلف والظلام، كان للمسلمين وللمرة الثالثة دورهم الحاسم الذي أنقذوا به أوروبا وعلموها كيف تفكر وتتعلم وتنهض، وذلك بعد مرحلة القرون الوسطى التي أرهقت الناس وأزهقتهم في جحيم مستعر من العذاب النفسي والجسدي على أيدي زبانية الكنيسة وتجار الصكوك، إن مفكراً مسلماً عربياً واحداً يكفي لأن يشير إليه مؤرخو أوروبا وهم يرفعون قبعاتهم تحية لدوره في إعادة الوعي إلى العقل الأوروبي الذي غيبته خزعبلات الكنيسة وخرافاتها وقمعها لقرون طويلة، هو المفكر والفيلسوف والطبيب العربي ابن رشد، ولقد سميت تلك الفترة التي بدأ فيها العقل الغربي عودته واستعاد فيها توازنه على يد ابن رشد ونتاجه الفكري بالفترة الرشدية نسبة إليه، وهكذا كانت شعوب تلك المنطقة العربية ذات فضل تاريخي عظيم على العالم كله وعلى أوروبا بشكل خاص، وعلى المفكرين والعلماء الغربيين المنصفين أن يرجعوا الفضل لأصحابه والحق إلى نصابه، فذلك أدعى إلى الأخلاق الفاضلة بدلاً من تحقير أمم عظيمة الشأن في تاريخها وعراقتها ونعتها بأوصاف لا تليق بإنسان يدعي الحضارة والعلم ويدفع العالم باتجاه الهاوية.
الإسلام والإرهاب (الإسلاموفوبيا)
منذ الثمانينيات بدأت وتيرة الإرهاب السياسي القائم على المعتقد الديني يشتد أوارها بعد انتهاء الحرب في أفغانستان ضد الاتحاد السوفياتي السابق.

ومن المضحك المبكي في آن معاً أن الحرب بداعي الجهاد في أفغانستان ما كانت سوى لعبة سياسية حقيرة الشأن اندفع إليها الشباب متحمساً تحت راية ما سمي بالجهاد في ذلك الوقت، وكان هؤلاء المخدوعون لا يعلمون أنهم يساقون إلى معركة وحرب تختلف غاياتها وأهدافها تماماً عما كانوا يقاتلون من أجله ويموتون في سبيله.

ولو عدنا للوراء قليلاً إلى تلك المرحلة من الصراع السياسي على الحكم في أفغانستان، ثم دخول السوفيات لتبينا أن وجود السوفيات هناك لم يكن ليهدد الدين على الإطلاق بالنظر إلى طبيعة الشعب الأفغاني وتمسكه بدينه، ولكن لأن الدجل الإعلامي والحشد السياسي الكاذب لقضية لم يكن لنا فيها ناقة ولا جمل، دفع بالشباب المغرر بهم تحت قيادة بن لادن وغيره، وهم في الحقيقة صناعة أميركية خالصة إلى الذهاب ليصبحوا كبش المحرقة في حرب قطف ثمارها السياسية الآخرون من القوى الكبرى صاحبة المصلحة في إرهاق وإزهاق القوة الشيوعية السوفياتية.

وانتهت الحرب بخروج واندحار السوفيات وتبع ذلك انهيار السوفيات السياسي والعسكري والاقتصادي وتفكك حلف وارسو واندثاره، وكان ذلك بالطبع نتيجة عوامل كثيرة كان منها الحرب في أفغانستان، لكن لم يدر بخلد أي منا أن يتساءل عما جرى بعد ذلك في أفغانستان من اقتتال بين الإخوة الأفغان، ووصول طالبان بفكرها الجامد المتجبر إلى الحكم، وبالتالي سقوط طالبان وأفغانستان بأكملها بين أنياب الفك المفترس للقوى الكبرى ممثلة في الولايات المتحدة الأميركية التي قطفت بذلك الثمار كاملة.

ألا يجدر بنا أن نتوقف ونتساءل ونتعلم ونستفسر عما جرى بالأمس القريب وما يجري الآن.

ثم تأتي العمليات الإرهابية من قتل وتفجير في كافة البلاد العربية، كان الضحايا هم الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال المسلمين، كل ذلك كان باسم الإسلام الذي نقرأ يومياً في كتاب الله والذين لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق إلى آخر الآية الكريمة، ونقرأ يومياً ـ من أجل ذلك ـ كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض كأنما قتل الناس جميعاً ـ إلى آخر الآية الكريمة، والعديد من الأدلة القطعية التي لا تحتاج إلى عالم أو مفسر ليبين لنا حرمة القتل والفساد في الأرض في شريعة الإسلام السمحة إلا للدفاع عن النفس، «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا» ـ صدق الله العظيم، ثم نقرأ الأحاديث الشريفة التي تبين بجلاء ووضوح قاطعين حرمة دم المسلمين وأن حرمة دماء المسلم أشد عند الله من حرمة بيته الحرام، وأن الأجانب في بلادنا هم في أمان وعهد وحمايتهم واحترامهم واجب لا شك فيه.

كل هذا لإرهاب والقتل والدمار باسم الإسلام، والإسلام بريء من هذه الجرائم النكراء التي أدت إلى مفاسد عظيمة وأعطت الذرائع للقوى الكبرى لتنفيذ أجندتها في الهيمنة الفعلية على حياتنا ومقدراتنا، وعلينا جميعاً كمسلمين أن نرفض تهمة الإرهاب وننفيها عن دين محمد النبي الأكرم عليه صلوات الله وسلامه، الذي كانت الرحمة بعثته والسماحة سمته. وعلينا أن نستخرج كنوز تراثنا العظيم لنعيد من خلالها صياغة فكر أمتنا ومجدها.

ولا يختلف إلا الجهلاء والحمقى على أن الإرهاب صناعة خارجية من قوى تخطط لتنفيذ أجنداتها ومآربها حتى الحادي عشر من سبتمبر، الذي كان المبرر الأخلاقي والقانوني لفصل قاس من فصول ضرب الإسلام ونهجه العظيم، وقد تعرض شرفاء العالم من الأوروبيين لفضح أكاذيب بن لادن ومموليه ومديريه حول الحادي عشر من سبتمبر، وعلى رأسهم الدبلوماسي والصحفي الفرنسي إريك رولان في كتابه «الوجه الخفي»، والصحفي المتخصص تيري ميسان في كتابه «الخديعة المرعبة»، اللذين كشفا بوضوح وبمنطق لا يقبل الجدل أن العملية الإرهابية التي حدثت في نيويورك وواشنطن من خلال تفجير برجي مركز التجارة العالمي والبنتاغون، لا يمكن عقلاً ولا منطقاً أن ينفذها مجموعة من الهواة إلا بتنسيق وتخطيط وتدريب من جهات عليا تقبع في الظلام هناك في مكان ما في أميركا وأوروبا، وقد استعرض إريك رولان بالأدلة التي لا لبس فيها أن هذا العمل لا يمكن أن يكون من تدبير بن لادن، وأن بن لادن ما هو إلا رمز أختير ليمثل الإسلام وليكون قائداً لمجموعات الشر الإسلامية التي تريد حرق العالم العربي وتدميره في أكبر حملة إعلامية شهدها التاريخ ضد أمة قدمت للدنيا أجل ما عندها وأثمن ما تملك من علم عظيم وحضارات عربية وأديان جليلة ومحت عن العالم جهله ورفعت عنه الظلم والغبن عبر التاريخ.

ودعونا نعرج على أقوال بعض المفكرين والمؤرخين الأوروبيين المنصفين عن الإسلام ونبيه الهادي محمد عليه صلاة الله وسلامه.

يقول جول لابوم «كان العالم قبل مولد هذا النبي مملوءاً بغيوم الاضطرابات والفتن والقلائل، ففي انجلترا كان الأنجلو ينازعون السكسون، وفي فرنسا كان أولاد كلوفيس متخاصمين متحاربين، أما في إيطاليا فكان اسم الرومان هو ذلك الاسم الشامخ قد فقد هيبته القديمة، وكانت روما وهي رأس ذلك التمثال المتهشم تترنح وتضطرب كلما ألمت بها طائفة من ذكريات عظمتها الراحلة. أما في إفريقيا فكان اليونانيون والرومان أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام دائبين على امتصاص دم مصر ساعين في جعلها كالجثة الهامدة لا حس فيها ولا حركة».

ويقول «ح.هـ.دينسون» مؤلف كتاب «العواطف كأساس للحضارة»: «النظم التي خلفتها المسيحية كانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلاً من الاتحاد والنظام وكانت الحضارة كشجرة ضخمة متفرقة امتد ظلها إلى العالم كله، ولكنها كانت واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب، وفي غمرات هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعاً» صلى الله عليه وسلم.

وهذا هو «وول ديورانت» يقول في موسوعته الشهيرة «قصة الحضارة»: «إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً كان أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ نفسه بأن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به الدياجير الهمجية حرارة وجوب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لا يرانيه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله».

وهذا هو السير «وليم موير» مؤلف كتاب «الخلافة» يقول: «لم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في وقت قصير كما فعل محمد» صلى الله عليه وسلم.
وهذا هو الكونت «هنري دي كاستري»: «لا عجب في أن ينشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة التي لم تترك وراءها أي أثر للعنف والظلم.. لقد زحف المسلمون في كل اتجاه ولكنهم لم يقتلوا أمة أبت الإسلام».
وهذا هو المفكر الفرنسي الشهير فولتيير يقول: «ليس بصحيح من أن الإسلام استولى قهراً بالسيف على أكثر من نصف الكرة الأرضية، بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس به بعد أن أقنع عقولهم.. لقد كان أكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة هو اتصافهم بالشيم العالية اتباعاً للنبي محمد» صلى الله عليه وسلم.
وهنا هو «بارتو لوميو سانت هير» يقول: «كان دينه الذي دعا الناس إلى اعتناقه جزيل النعم على الشعوب التي آمنت به».
وهذا هو «يورسو يرث سميث» يقول عن محمد عليه صلاة الله وسلامه: «كان محمد في وقت ما مؤسساً لأمة ومقيماً لإمبراطورية وبانياً لدين.. وهو وإن كان أمياً فقد أتى بكتاب يحوي أدباً وقانوناً وأخلاقاً عامة ومجموعة كتب مقدسة في كتاب واحد، وهو معجزة في دقة الأسلوب وسمو الحكمة وجلال الحق».
وفي تأثير الحضارة الإسلامية على الغرب هناك من المنصفين الأوروبيين الذين نادوا بالاعتراف بأثر الحضارة الإسلامية والإسلام وفضلهما على أوروبا، وفي هذا المجال يقول الباحث الإنجليزي «ليونارد»: «لقد وصلت الحضارة الإسلامية إلى أعلى مستوى من العظمة عمرانية كانت أم علمية، حتى ليرجع إليها الفضل في بعث المجتمع الأوروبي وهدايته إلى طريق الخلاص من الانحطاط، بل الاندثار، ويضيف قائلاً: ألا يجب أن نعترف نحن الذين بلغنا أعلى قمم الحضارة، كما نزعم، بأنه لولا التهذيب الإسلامي وحضارة المسلمين وعلومهم وثقافتهم وعظمتهم وحسن نظام جامعاتهم لبقيت أوروبا تتخبط في ظلام بهيم».
وهذا هو «إيمانويل دويس» يقول: «إن المسلمين علموا العالم الفلسفة والطب والفلك وأحيوا تراث اليونان، لقد كانت الدنيا مغمورة ببحر من ظلمات الجهل فأغرقوا كل أرجائها بالنور».
وهذا هو «داورد جيبون» المفكر الإنجليزي الكبير يقول: «إن موحداً ذا عقل مفكر لن يتردد في الاعتراف بفضل القرآن وعظمة نظريات الإسلام وإنه لدين أعلى من تطورنا الفكري اليوم».
وتحت قبة البرلمان في انجلترا هذا هو مستر «بيرك» في خطابه للبرلمان يقول: «إن دين الإسلام هو أحكم وأعقل وأرحم تشريع عرفه التاريخ البشري».
هذا هو الإسلام، وهذا هو نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، الذي يسبه بعض الموتورين في الغرب من الجهلاء، وهم في حقيقة الأمر من الملحدين الذين لا يؤمنون بأي دين، وهم إضافة لذلك جهلاء وحمقى وضحايا للمادية التي عبدوها من دون الله، وجعلوها ديناً لهم ويالالأسى هؤلاء الموتورون الذين يشتمون ويسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، يفعلون ذلك طلباً للشهرة ورغبة في أن يشير إليهم الآخرون وأن يثيروا ضجة يلفتون بها إليهم أنظار البشر في عالم أصبح مستعبداً للمادة ولشهوات دنيوية زائلة لا محالة ولم نجد أياً من هؤلاء الصحفيين أو الفنانين يكتبون عن حقائق الإرهاب وما حدث في الحادي عشر من سبتمبر سوى هذان الفرنسيان اللذين أنحني احتراماً لشجاعتهما ونصرتهما للحق فيما يعجز إعلامنا ومؤسساتنا الصحفية والإعلامية عن مجرد الخوض أو حتى الإشارة لكتابيهما وما تضمناه من حقائق دامغة على شبكة الأكاذيب التي علق فيها العالم بأسره وقادتها مؤسسات إعلامية كان يشار إليها بالبنان ضد الإسلام وأمته في محاولة لتشويهه وإلصاق تهمة الإرهاب به. ومن المفيد هنا أن نطلع القارئ على بعض الحقائق التي وردت في كتاب السيد «إيريك لوران» الدبلوماسي الفرنسي السابق والصحفي والمفكر الشهير «الوجه الخفي»، حيث قام بتحقيق واسع ودقيق عبر شبكة اتصالاته وصداقاته الواسعة مع العديد من المسؤولين الغربيين والمتنفذين في السياسة والإعلام.
ويثبت هذا الكتاب وكاتبه السيد لوران بالأدلة التي لا تقبل الجدل، أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت تمثيلية كبرى ومؤامرة لم يتم حتى إخراجها بشكل جيد يتناسب وأهمية هذا الحدث، ويتعرض السيد إريك لوران إلى الأحداث والوقائع بتسلسلها الزمني والتوقيتات والبيانات البيوغرافية للإرهابيين المفترضين، التي نشرت أسماؤهم وأعداد الركاب في الطائرات، والتعتيم المتعمد للخوض في هذه القضية الضخمة، الأمر الذي يلقي بظلال كثيرة على مصداقيتها، لكن الأمر الأكثر خطورة هو أعداد الإرهابيين والإعلان عن أسمائهم وبياناتهم في الوقت الذي وجد فيه العديد منهم يعيشون في بلدانهم ويمارسون أعمالهم بشكل قانوني سليم، بل إن بعضهم تلقى اعتذاراً رسمياً من الحكومة الأميركية بسبب إلحاق أسمائهم بلائحة الإرهابيين والعلاقات الوثيقة على المستويين الشخصي والمالي والإداري لبعض من اتهموا بتمويل الإرهاب، والتي تربط بينهم وبين مسؤولين كبار في الإدارة الأميركية بدءاً من الرئيس بوش وحتى رؤساء لجان التحقيق والشراكة التي تربط بينهم في مجال الأعمال والمال.
ثم فند تقارير أجهزة الأمن وعلى رأسها وكالة المخابرات المركزية الأميركية التي كان يرأسها حينئذ السيد/ جورج تينيت الشهير، الذي ثبت كذبه أمام لجان التحقيق فيما يتعلق بالعراق والحرب التي دمرت فيه الأخضر واليابس، وتسببت في قتل ما يزيد على مليون إنسان بدعوى امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، ولعلها كانت أكبر كذبة شهدها العالم أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحادي والعشرين.
وللأسف لم يتساءل أحد عن كل هذه التفاصيل الدقيقة والحاسمة لكشف أي جريمة، وكيف يمكن القبول بهذه التبريرات الصبيانية الواهية لأجهزة أمنية تراقب دبيب النمل على الكرة الأرضية؟، وكيف يمكن أن تجهل هذه الأجهزة المعروفة بأنها أقوى أجهزة أمنية على سطح الكوكب، بيانات هؤلاء الإرهابيين المفترضين؟.

والأدهى والأمر أن الأجهزة الرسمية الأميركية والإدارة السياسية العليا لأميركا، كانت تعلم عبر ما نشر بعد ذلك أن هناك عملية ضخمة ستجرى ضد أميركا داخل أميركا، وذلك من خلال ما وصلها من معلومات مؤكدة من أجهزة المخابرات الإنجليزية والأردنية والمصرية والإسرائيلية.

لقد كانت المعلومات تتدفق قبل حدوث عملية الحادي عشر من سبتمبر بشهور طويلة، وكانت تشير إلى استخدام الطائرات في هذه العملية، فكيف يمكن أن يصدق عقلاء العالم وعلى رأسهم العرب والأوروبيون، هذه الفبركات الاستخباراتية، وهذه الدراما المأساوية التي تبخر إنسانية الإنسان، وتقتل كل دواعي الشرف والقيم فيه، حين يشاهد العالم المحارق وهي تلتهم البشر، نساء وأطفالاً وشيوخاً وشباباً، وتجرى عملية تدمير ممنهجة لدول وشعوب، ثم يأتي أسوأ ما في الأمر حين تلصق التهمة الفظيعة والكريهة بدين كان وسيظل مشعل نور، استضاءت وتستضيء به البشرية، في عتمة جهلها وإلحادها وقسوتها، إن أسئلة كثيرة يجب أن تطرح حول مصدر شرائط الفيديو التي كانت تقدم للمؤسسات الإعلامية لعرضها، ومنها هؤلاء الذين كانوا يظهرون أمام الكاميرات وهم يحملون لافتات عليها آيات مقدسة من القرآن، أو وهم يتلون آيات من كتاب الله، استعداداً لتفجير أنفسهم أو لتفجير طائرات ومبان، ثم يتضح بعد ذلك أن أصحاب هذه الأسماء التي ظهرت أحياء ويعيشون في بلادهم بكل شرف ويعملون في وظائفهم بكل أمان وسلام، كالسيد/ سعيد الغامدي، وقد عزي مصدر الشريط أيضاً إلى ما يسمى تنظيم القاعدة، التي تقود الإرهاب في العالم، وكذلك السيد/ أحمد النامي، الذي صدم برؤية اسمه ووزير العدل الأميركي ينوه عنه وهو في بلده حي يرزق، بعدما عرضت الفضائيات الغامدي وهو يقرأ وصيته ويعلن العداء لأميركا، ويجب على كل مسلم أن يقاتلها، وهو يعمل في وظيفته بكل شرف واطمئنان.

وسالم الحازمي الذي تعلن شبكة S.B.C أنه القرصان الخامس الذي قاد طائرة الرحلة 77، والتي انقضت على البنتاغون، ثم إذا هو يعيش في بلده في أمان تام وبين أهله وذويه.

لقد تساءل السيد لوران، ونحن نتساءل معه، عن أعداد الأشخاص الإرهابيين الذين قادوا هذه الطائرات ليثيروا الموت والدمار في مانهاتن وواشنطن ويقتلوا الأبرياء هناك، وكذلك التخبط في أعداد المسافرين على متن الطائرات.

هل يعقل في بلد من بلدان العالم الثالث أو الرابع ألا تدري شركة طيران فيها بأعداد المسافرين على متن طائراتها. وهنا الطامة الكبرى حين تصدم عقولنا هذه الحقائق المروعة، حيث تجهل شركات الطيران عدد مسافريها، وتتم أكبر وأطرف عملية تخبط في أعداد وقوائم المسافرين على كل رحلة من رحلات الطائرات المزعومة، وأبسط من على الأرض وعياً وفهماً يعلم أن أسماء وأعداد المسافرين وجنسياتهم تسجل قبل أن تقلع أي طائرة ركاب في العالم، وتعالوا معاً لنضحك بأسى ونحن نتابع هذه الملهاة، فهذه الطائرة التي ضربت البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي، ورقم رحلتها 11، أعلن أنها كانت تحمل على متنها 92 شخصاً بمن فيهم ملاحا الطائرة، ثم تأتي القائمة الرسمية لتقول إنهم كانوا 76 مسافراً، والمزحة الكبرى أن أسماءهم لا تضم أي اسم للإرهابيين المفترضين الخمسة المعلن عنهم، هل يعقل أن يحدث هذا في أميركا التي علمت العالم الطيران وإدارة شركات الطيران، ثم يأتي التقرير النهائي للجنة التحقيق ليذكر أن العدد كان 81 ويوردون 81 اسماً وخمسة إرهابيين.

وعلى الطائرة الأخرى التي ضربت البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي، رحلة رقم 175، كان عدد الركاب كما أعلن 65 راكباً، ولم يتم سوى إحصاء 56 ضحية، ولا وجود لأي اسم من أسماء الإرهابيين المفترضين، ثم يأتي تقرير لجنة التحقيق النهائي ليقول إنهم كانوا 56 بمن فيهم الإرهابيون من يصدق هذا ـ هل صدقه الأميركيون والأوروبيون ـ لا أظن ذلك، ثم تأتي طائرة البنتاغون الرحلة رقم 93، التي ضربت البنتاغون ويعلن أن عدد ركابها 45 راكباً، وتأتي القائمة الرسمية لتشير إلى 33 راكباً فقط، دون أن تشير إلى أي من الإرهابيين، وبعد ذلك يأتي تقرير اللجنة الخاصة بالتحقيق ليقول إنهم كانوا 37 شخصاً، بمن فيهم الإرهابيون، إن الأمر يحتاج لصرخة تهز أركان الدنيا وترفض هذا الاستهزاء بعقولنا، وأفهامنا، إنني أتساءل مع السيد لوران أنه إذا كان قد حدث ارتباك في عمليات إحصاء أعداد المسافرين، وهذا مستحيل، فإن التناقضات تبقى صارخة ومعلنة عن جريمة بحق أمة تشكل ربع عدد البشرية على سطح الكوكب، وبحق الإنسانية والأخلاق والتاريخ.

ويقول السيد لوران، وأنا هنا أستعرض فقط معه وكل الناس حول العالم يعلمون أن كل شركة طيران أينما كانت تعرف أعداد مسافريها وركاب طائراتها وجنسياتهم وهوياتهم، فكيف تجهل أعظم شركات طيران في العالم بتكنولوجيتها الحديثة وإداراتها التي لا تطاولها إدارة أخرى، وحاسباتها ونظامها، أعداد وأسماء مسافريها؟، ويتعجب الكاتب لوران ويقول: إنه إذا سلمنا بأن الـ N.N.C التي بثت القوائم الرسمية ونشرتها «اسوشيتدبرس»، قد أخطأت تحت أي ظرف ما من الظروف، وأن نقص الأرقام في عدد الركاب كان بسبب خطأ التقييم أو بسبب خلل وظيفي، فكيف نفسر عدم وجود أسماء الإرهابيين وغيابها عن هذه القوائم؟، علامة استفهام كنجمة لابد أن يتم الإجابة عنها يوماً ما، لكن بعد أن يفر المجرمون من الميدان وتأتي السنين على أشلاء الحقيقة لتنبعث من جديد ويسجلها التاريخ كإحدى أفظع حكايات الشر وحقائقه التي هزت البشرية وأثرت في حركة العالم وسياساته وتوجهاته.

والمضحك المبكي في المأساة أن أميركا المعروفة بمدنيتها وقيمها التي نعتز بها، خاصة الحرية والشفافية ممثلة في وزير العدل السيد/ شكروفت، منع منعاً تاماً إفشاء أي معلومات للمحققين والصحفيين، هؤلاء الفضوليين الذين يتوقون لمعرفة الحقيقة، وتم ضرب سور فولاذي حول الحقائق التي كانت ستظهر للشعب الأميركي والعالم هول المؤامرة، وهول الجريمة التي ارتكبت بحق الشعب الأميركي أولاً في أبنائه الذين قتلوا في الحادث، ثم هذه الأمة الإسلامية التي تجرى محاولة كسر عظامها وترويضها وإدخالها إلى حظيرة البقر التي يرعاها أولئك اليانكيز في براري أريزونا وويسكونسن.

ويشير السيد/ إيريك لوران إلى حقيقة التدابير والمؤامرات التي تتخذ لتنفيذ خطة ما وطبيعة العمل السري الهلامي في تنفيذ هذه المؤامرات وإقناع العالم بها عبر التكامل بين منظومات إعلامية لها مصالح وبين جماعات ولوبيات تؤمن بالعهد القديم، مادام يمنحها رؤية جيدة لمصالحها الإمبراطورية، يقول بالنص في كتابه «الوجه الخفي»، في إشارة للبيانات الأميركية المتضاربة عن حقائق ما حدث وهويات القائمين عليه:

«أسماء وهويات وصور لا تتناظر، عندما أتأمل هذه الوجوه أشعر بإحساس بالضيق تماماً، كما لو كان الأمر يتعلق بلعبة ورق يشوبها التزوير والغش، بأن المزاعم والوقائع غير متطابقة».. أحد قدماء المنشقين عن B.G.K (المخابرات السوفياتية السابقة)، واللاجئ حالياً في بريطانيا، تحادث معي حول «همجية المرايا»، في محاولة للتذكير بنشاط دوائر المخابرات، ثم أردف قائلاً «إنه عالم متاهي يزول فيه كل حد بين الكذب والحقيقة»، أرجع إلى دوائر الاستخبارات لأن هذه القائمة بأسمائها التسعة عشر (الإرهابيين المفترضين) والتي تقدمت بها I.B.F تذكرني بالأساطير، إنه التعبير الذي يستخدمه العملاء لوصف نمط من التلاعب يكمن في خلق شخصيات من لا شيء وإلباسهم هوية وماضياً يجعلان وجودهم محتملاً وجديراً بالتصديق.

هل يعقل أن تعجز دوائر استخبارات، تعتبر الأقوى والأنجع في العالم كله تفوق ميزانياتها ثلاثين مليار دولار وطوال ساعة كاملة عن التعامل مع بعض الهواة الذين يدعون أنهم سيطروا على الطائرات وخطفوها ليدمروا بها برجي مركز التجارة العالمي والبنتاغون ولديهم أفضل منظومة سيطرة جوية بما فيها المطارات والصواريخ وشبكات الإنذار المتطورة «حدث العاقل بما لا يليق فإن صدق فلا عقل له».

الدليل الآخر الذي تناوله السيد لوران في معرض تدليله على المؤامرة ودلائلها التي قد تخفى علينا نحن العرب والمسلمون ولكن ها هم أشراف الغرب يفندون الوقائع بالدليل والمنطق ليبينوا حجم المؤامرة وأهدافها. هذا الدليل الثاني هو الجانب المالي من قبل المطلعين، والذي تم التعتيم عليه وعدم السماح بفتح ملفاته أبداً لأنه كان سيكشف المؤامرة باعتباره انعكاساً لتخطيطها ولنتائجها، وهذا هو السعار المالي الذي اجتاح البورصات المالية الأميركية والمضاربات غير الاعتيادية التي تمت قبل جريمة صدم الأبراج بساعات أو ربما 3 ـ 4 أيام وصلت ذروتها خلال ليلة 10 ـ 11 سبتمبر قبل الضربة بساعات قليلة.

يشير لوران إلى إحدى أشهر المؤسسات المالية على الكرة الأرضية وهي مؤسسة مورجان ستانلي التي كانت تشغل 22 طابقاً من البرج، وتأتي الطائرة لتصطدم بهذه الطبقات، لكن القصة تبدأ هنا حيث إن ما مجموعه 2157 سهماً لهذه الشركة تم شراؤها خلال الـ 72 ساعة التي سبقت الاعتداء، فيما الحجم الطبيعي والمعتاد لبيع هذه الأسهم لا يتجاوز 27 سهماً فقط في اليوم، وبالطبع كل لبيب بالإشارة يفهم.

في نفس الوقت حدث نفس الأمر لعملاق مالي آخر وهو مؤسسة ميريل لينش، حيث باعت بين اليومين السادس والعاشر من سبتمبر، أي قبل الضربة بساعات لا تزيد على مائة ساعة ما مجموعه 12215 سهماً، في المعتاد لم يكن يزيد حجم المضاربات على 252 سهماً في اليوم الواحد. مفارقة تستحق النظر، تستوقف لوران وكثيرين غيره، لكنها لا تستوقف المسؤولين الأميركيين ولا أجهزة الأمن والمخابرات وعلى رأسهم الـ I.B.F التي لم تسمح لمجرد الاقتراب أو إثارة هذا الأمر، هذا إضافة إلى ما حدث في أوروبا من اضطراب مالي لشركات التأمين، وفي محطة تليفزيون C.B.A يصرح الخبير جوناثان فيز قائلاً: «إن هذه الحالات العائدة إلى جريمة المطلعين تغطي العالم بأكمله من اليابان إلى الولايات المتحدة مروراً بأوروبا ولا سابق له في التاريخ».

وفي تقرير خطير لم يلفت نظر أي من أجهزة الأمن التي تسمع دبيب النمل وتتنبأ بما سيحدث وتتباهى بقدراتها الفائقة وشفافيتها العالية، تنشر جريدة «وول ستريت» في الثاني من أكتوبر 2001 تقريراً يقول: «إن شبكة مقاومة الجرائم المالية لاحظت ارتفاعاً غير طبيعي في شراء سندات على الخزينة الأميركية لمدة خمس سنوات، وذلك قبل اعتداءات سبتمبر مباشرة، وقد وصلت المضاربات رقماً مذهلاً يوازي خمسة مليارات من الدولارات»، لكن ما المغزى من شراء هذه السندات؟.. تقول الصحيفة: «هذه السندات لخمس سنوات تمثل أفضل الاستثمارات في حال حدوث أزمة عالمية، خاصة إذا طالت هذه الأزمة الولايات المتحدة الأميركية، لتميز هذه السندات بأنها موضع ثقة عالمية ومضمونة من الحكومة الأميركية وتكبر قيمتها وتزيد»، ثم تستنتج صحيفة «وول ستريت» أن قيمة هذه السندات قد تضخمت بالفعل بعد الحادي عشر من سبتمبر.

وحتى يعيد الأميركيون السيطرة على التساؤلات والإعلام وإغلاق هذه الملفات الخطيرة التي بدأت الألسنة تتناولها، وبعد تسعة أيام من الضربة فقط، أي في العشرين من سبتمبر، يأتي السيد وزير الخزانة الأميركي بول أونيل ليقول بحرج في شهادته أمام لجنة المال في مجلس الشيوخ، رداً على هذه التساؤلات والشبهات: «قبل الوصول إلى المصدر الحقيقي لهذه العمليات، يجب أن نجتاز عشر مؤسسات متحاجبة»، أي أنه لا يمكن القيام بالتحقيق والوصول إلى الحقيقة، وهكذا تم إغلاق الملف.

ويشير السيد لوران إلى ما واجهه من رفض الإجابة عن أسئلته أو تحديد مواعيد لمقابلة المسؤولين في كل من وزارة العدل أو الـ I.B.F أو وزارة المالية أو C.B.S، ولم يعطوه أي معلومة مهما صغرت حول هذا الأمر.

الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فحين دمر البرجان كانت أجهزة الحواسيب في الشركات المالية قد دمرت أو احترقت بعد أن تم رفع الأنقاض والحصول على الأقراص الخاصة بأجهزة الكمبيوتر Harddisk، سارع الكثيرون والعديد من المؤسسات المالية وبطاقات الاعتماد والاتصالات إلى الاتفاق ومحاولة إنقاذ وفك رموز المعلومات بداخل هذه الأقراص، ومن خلال مناقصة سرية اختيرت مؤسسة صغيرة ألمانية اسمها «كونغار» في مدينة بيرماسينس على الحدود الفرنسية، تملك قدرات تكنولوجية متطورة بالليزر، تستطيع استعادة واستخراج المعلومات الموجودة على الأقراص المصابة بتلف شديد، وبالفعل تمكنت كونغار من معالجة المعلومات الموجودة في عدد 32 جهاز كمبيوتر وجدت في بقايا البرجين. وصرح السيد بيتر هانشل مدير عام شركة كونغار لوكالة رويترز قائلاً: «ثمة ميل إلى الاعتقاد بأن

المعلومات حول الاعتداءات قد حصل عليها المطلعون واستخدموها في مضارباتهم المالية آخذين في الاعتبار أنه مع حصول البلبلة الناجمة عن الحدث ستكون لديهم الفترة الكافية من الوقت». وأضاف، مشيراً إلى ارتفاع مستوى المضاربات بشكل غير طبيعي قائلاً: «حتى أننا نستطيع أن نفترض أنه قد أصاب الأميركيين سعار حاد من التسوق صبيحة يوم الثلاثاء ـ 11 سبتمبر ـ حتى لو أخذنا في الاعتبار هذه الفرضية فإن عدداً لا بأس به من المضاربات يبقى مع ذلك عصياً على التفسير».

إن كافة البيانات والمعلومات التي استطاعت مؤسسة كونغار جمعها، أصبحت طي الكتمان ولازالت ولم يتسرب منها شيء، والسبب كما يقول السيد لوران أنه اكتشف أن هذه الشركة الألمانية متعاقدة منذ خمسة عشر عاماً مع الشرطة الفيدرالية الألمانية والجيش الأميركي، وأنها قبلت التعاون اللامحدود مع I.B.F الذي سارع بإغلاق هذا الملف تماماً.

إن «لوران»، هذا الرجل الفرنسي بعلاقاته وثقافته وفهمه ربما ألقى الضوء على أكثر النقاط التي تكشف حجم المؤامرة وخيوطها المتشابكة والمعقدة التي تستلفت انتباه المراقبين، وحتى البسطاء المهتمين بالأمر.

إن وكالة المخابرات المركزية الأميركية تراقب على مدار الساعة كافة عمليات ومضاربات الأسواق المالية، وكما يقول لوران في كتابة: لقد أسر لي أحد محللي الـ A.I.G أن الوكالة تستخدم برامج مكثفة وفائقة القدرة وأسمها برومیز Promise للمراقبة الدائمة على مدار الساعة، ويضيف المحلل قائلاً: إنه أشبه بميزان حرارة مغروس في قفا المضاربين. دلالة على فعالية وشدة المراقبة، على اعتبار أن أي حركات مالية غير عادية في البورصات قد تكون انعكاساً لعملية أو لحدث ما ضد المصالح الأميركية، وهنا نقول: إذا كان الأمر كذلك، وكل التحركات تحت السيطرة، فكيف يمكن أن نقبل بما حدث؟، ويطرح لوران السؤال التالي:

ـ لماذا تركوهم يقومون بما فعلوا؟

الأعجب من هذا، وبعيداً عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر وحكايات الإرهاب، استعرض ما قاله لوران في حديث مع أحد المسؤولين الكبار في الإدارة الأميركية سابقاً، وكان وزيراً للخارجية يوماً ما هو «أفريل هاريمان» صاحب شركة السكك الحديدية الأميركية «يونيون باسيفيك» العملاقة، وأحد أشهر السياسيين الأميركيين، يقول لوران: «أذكر النقاش الذي دار بيني وبين أفريل هاريمان في شقته النيويوركية الفخمة المغطاة بلوحات لكبار الرسامين، هذا الرجل الأبيض الشعر والفارع القوام، هو وارث يونيون باسيفيك إحدى شركات السكك الحديدية الأميركية الرئيسية في الولايات المتحدة، وقد ذكرني أنه في شهر يونيو 1944 بعد عدة لقاءات مع جوزيف ستالين الزعيم الشيوعي السوفياتي في الكرملين، قام بكتابة تقرير للرئيس روزفلت ذكر فيه (إن ستالين يعترف بأن ثلث المشاريع السوفياتية الضخمة تقريباً قد تم إنشاؤها بمساعدة الولايات المتحدة أو بفضل مساعداتها الفنية)، وقد أوردت هذا الحديث لأبين كيف نفسر هذا التعاون وما كان من عداء مستحكم بين القوتين».

وعودة إلى مسرح الإرهاب وعملية الحادي عشر من سبتمبر، التي تغتال بواسطتها أمة عظيمة وتاريخاً مجيداً، يقول لوران: «إن المقال الذي نشرته سان فرانسيسكو كرونيكل، في التاسع والعشرين من سبتمبر 2001، وأعيد نشره في الرابع عشر من أكتوبر في الجريدة اليومية البريطانية ذي إندبندنت، أوضح الطريق للوصول إلى الجواب».

وفقاً لمصادر مأذون لها أن 2.5 مليون دولار من الأرباح الناجمة عن المضاربات على أسهم «يونايتد إير لاينز» مباشرة قبل الحادي عشر من سبتمبر، لم يكن قد تم تحصيلها بعد، ووفقاً للصحيفتين ثمة مصدر مألوف للأسواق الأميركية، كما حدده أليكس براون ـ بنك الاستثمارات الأميركي الفرع المستقل للعملاق الألماني «دويتش بنك» هو المؤسسة التي اشترت على الأقل جزءاً من هذه الأسهم، وبدوره رفض الناطق باسم البنك «روهيني بروجاسام» الإدلاء بأي تعليق.. ثمة رجل قد كلف من قبل إدارة بوش أن يحدد خط سير المستفيدين وهوياتهم وهذا الرجل هو الرئيس السابق للجنة الإرهاب التابعة للإدارة الأميركية واسمه «بول بريمر»، وقد عين لاحقاً حاكماً للعراق، أما الملف فقد طمر وتلاشى ولم يتوقف لوران عن التنقيب وتتوالى الإشارات الخطيرة للمؤامرة حين يشير إلى علاقة المؤسسة المصرفية الأميركية التليدة «أليكس براون» وعمرها الذي يتجاوز مائتي عام، حين اندمجت مع «بنكرز ترست» قبل أن يشتريها «دويتسن بنك» عام 1999، المفاجأة الأولى، كما يقول لوران، السيد «مايو شاتوك» رئيس أليكس براون، كان قد وقع نفس العام 1999، اتفاقية جديدة مدتها ثلاث سنوات مع «دويتش بنك» تؤمن له أكثر من 40 مليون دولار في شكل رواتب وعلاوات، وهو وضع أقل ما يقال عنه أنه مريح ومتميز، غير أنه سرعان ما قدم استقالته قبل الحادي عشر من سبتمبر بأيام قليلة، وكان التفسير الرسمي لاستقالته أن السيد «شاتوك» يريد أن يمضي وقتاً أطول مع عائلته، وهذا ما كان يتعارض مع سفراته التي كانت تضطره أن يكون في ألمانيا مرتين شهرياً.

وحين بحث لوران في خلفية السيد شاتوك الاجتماعية، وجد أنه وفي التاسعة عشرة من عمره، كان يشغل وظيفة أمين صندوق جامعة هارفارد، كما كان أحد كبار الشخصيات المرموقة في عالم المال في بوسطن وكان يملك صفات الرجل الناجح، حتى أنه تولى بنكرز ترست رفع قيمته السوقية التي كانت بالكاد 150 مليون دولار، لكنه ترك أليكس براون بسعر بلغ 2.5 مليار دولار، بالإضافة إلى منحة مالية كبيرة له.

ويشير لوران إلى الشراء المكثف لأسهم يونايتد إير لاينز، قد تم من قبل مؤسسة أليكس براون، التي يستقيل رئيسها فجأة في نفس التوقيت، لكن أحد الصحفيين الماليين يشير على لوران أن يهتم بشأن «بازي كرونغارد» الذي تولى عام 1991 منصب مدير عام مؤسسة أليكس براون في نفس التوقيت الذي تولى فيه شاتوك منصب الرئيس، وكانا متناغمين بشكل ملحوظ ومدهش، وطورا المؤسسة بنجاح معاً، وعين باري عام 1997 نائباً للرئيس في بنكرز ترست، إلا أنه أيضاً قدم استقالته وبشكل مفاجئ بعد شاتوك بعدة شهور.

ويشير الصحفي المالي للوران إلى أن «بازي» أصبح الرجل رقم 3 في وكالة المخابرات المركزية بمنصب مدير تنفيذي منذ 16 مارس 2001، لكنه كان يتعاون مع الوكالة منذ استقالة أليكس براون عام 1998.. لقد ترك عملاً مكافأته 4 ملايين دولار سنوياً ليشغل وظيفة مستشار لمدير A.I.C جورج تينيت.
فحين يتولى رئيس المؤسسة المصرفية التي قامت بالمضاربات مباشرة قبل حدوث الاعتداءات، رجل صار فيما بعد أحد مديري A.I.C، وهو المنوط به التحري لحساب الوكالة عن أقل شذوذ يطرأ على الأسواق المالية، ورغم ذلك فإن الوكالة لم تر ولم تسمع ولم تفهم، هل يعقل هذا؟
إن هذه الدلائل تشير إلى مؤامرة رخيصة من أجل الانقضاض على هذه الأمة العظيمة التي لم تقدم للعالم سوى كل خير، وكانت الحاملة والناقلة لرسالات الهدي السماوي لكل أمم الدنيا شرقاً وغرباً، وكانت أوروبا والغرب من أكثر أمم الأرض استفادة من هذه الأمة، وعلى كافة المستويات الروحية والمادية والعلمية والأخلاقية.
إن الإشارة الصريحة حول العلاقة العضوية الأصيلة بين عالم الاستخبارات وعالم المال والأعمال يبدو مدهشاً لمن لا يعلمون الحقيقة المرة حول هذا العالم، وربما يندهش الكثيرون حين يعلمون أن رجال وأعضاء وكالة الاستخبارات المركزية وحدها الأكبر OSS، مكتب الخدمات الاستراتيجية، لم يكونوا سوى مجموعات من رجال المال والمصرفيين والمحامين، وكانوا دائماً المهيمنين على وول ستريت وهو شارع المال في نيويورك، فهذا وليم دونوفان مؤسس OSS مكتب الخدمات الاستراتيجية، كان محامياً أيرلندي الأصل يقول لوليم كولبي، وهو من نفس الأوساط محامين ومصرفيين «آلان دالاس» المحامي في وول ستريت وسوليغان وكروموبل قبل التحاقه بالـ A.I.G.
«وليام كيس» نفس الشيء محام ورجل مال في وول ستريت، ثم رئيس لمجلس عمليات البورصة، ثم مديراً للـ A.I.C، وكان قبل كل هذا أحد رجال OSS الحد الأكبر للـ A.I.C جون دوتسن، الذي كان موظفاً في وكالة المخابرات المركزية، ثم إلى مجلس إدارة بنك «سيتي جروب» ثاني أكبر بنك في أميركا «نورا سلاتكين» المدير التنفيذي السابق للـ A.I.C، والذي يجلس فيه الآن كرونغارد وديفيد دوهرتي نائب الرئيس الحالي لبورصة نيويورك المكلف بقمع الغش وجرائم المطلعين، كان يشغل منصب المستشار العام لوكالة الاستخبارات. كل هذا ولم يحاول أحدهم الإشارة أو فتح فمه ولو بكلمة بعد جريمة الحادي عشر من سبتمبر وفي النهاية هذا هو مجلس عمليات البورصة C.E.S، الذي يعتبر الشرطي الذي يتابع ويحمي البورصة ويرصد أي تحركات مريبة لا يحاول حتى الإشارة لما حدث.
ثم يأتي شهر أكتوبر 2001 بعد الجريمة بأيام، تصدر نشرة تعلن ترك السيد ريتشارد ووكر مديراً من الأسواق في الـ C.E.S منصبه، وتنوه بأنه أظهر أثناء عمله شغفاً وإخلاصاً ألهما كل من كان يعمل معه، وخلال عهده اتخذ C.E.S موقفاً صلباً، خاصة تجاه التحايل والتدليس على الانترنت، وكان ديك محامياً لامعاً وقوي الشكيمة بالسير إلى العقوبات الجنائية التي ينزلها بمن يخرقون القوانين.. إننا نقدر إخلاصه في حماية المستثمرين، خاصة المسنين منهم، أما ووكر المكلف بملاحقة جريمة 11 سبتمبر، والذي لم يوضح لنا أسباب هذه الجريمة، ويلتحق بعدها بوظيفة ذات مردود مالي عال كمستشار في مؤسسة دويتش بنك، الذي يسيطر على أليكس براون.
لقد تحرى السيد إيريك لوران المسألة برمتها وأشبعها تحقيقاً وتوضيحاً لا لبس فيه، لكل ذي لب وبصيرة، لكن من يرى ومن يسمع، فنحن في عصر الحق فيه للقوة وليست القوة فيه للحق والعدالة، وهذا هو العالم نرى قبحه وسوءاته، وكيف يدار، ونرى جريمة بحق أمة من أعرق أمم الأرض تمثل ربع سكان الكوكب، تتعرض لأبشع أنواع القسوة والتدمير بسبب شر مستطير يسيطر على مراكز القرار والقوة في العالم.

الحقيقة والأكذوبة

سؤال ضخم يثور في مخيلة الكثيرين بعد أن لاحظوا أن الأميركيين ليسوا جادين في القبض على بن لادن ومعاونيه، ويؤكد ذلك لقاء رجل المخابرات الأميركي المكلف والمسؤول عن متابعة بن لادن في أفغانستان لفترة طويلة، خلال لقائه على فضائية الجزيرة مع محاوره السيد أحمد منصور، كان رجل المخابرات الأميركي يحكي قصته في مطاردة بن لادن، وكيف تمت محاصرته والتمكن منه عدة مرات، وحين يطلب الإذن من قيادته بالتنفيذ لا يجاب سوى بالصمت، كان مضمون حديثه: لا تقبضوا عليه ولا تقتلوه، فهو الدجاجة التي تبيض ذهباً لنا، إن انتهى اسمه واسم القاعدة من على شاشات الفضائيات والصحف لن نجد تبريراً لما نقوم به من إبادة وتدمير لأمة طيبة حملت دائماً نهجاً خيراً ودعوات سلام للبشرية، وكانت دائماً مطلع أنوارها، وتلك هي المشكلة.. لكن هناك النفط وإسرائيل ومخططات عولمية نسعى لها جاهدين، فلنعمل على كافة الأصعدة والمستويات الإعلامية مثلاً، حيث نلقي في قلوب البشر الرعب من هؤلاء المسلمين الوحوش ودينهم الذي يحض على القتل وقطع الرقاب، وها هي الفضائيات تطير الصور كلمح البصر إلى المشاهدين في كل مكان من العالم على وحشية هؤلاء الناس، ومدى جهل وتخلف هذه الأمة التي قال فيها المولى سبحانه وتعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»، فلنكذب التاريخ ولنكذب الواقع ولنكذب ونوظف الإعلام بطريقة تحول الأسود إلى أبيض، وتحول المقتول إلى قاتل ومجرم ومذنب لماذا لا، فلنا الريادة والسبق والخبرة ولدينا الديمقراطية التي نعرف كيف نوظفها جيداً لمصالحنا، فالجمهوري والديمقراطي كلاهما واحد لا فارق بينهما على الإطلاق في الأهداف والغايات والتوجهات، الهدف هو الأجندة الإمبراطورية والوسائل قد تختلف على بعضها، لكننا نختلف فقط على الوسيلة الأنجع على السكين الأكثر والأقوى قطعاً وحسماً ولا خلاف أبداً على الغايات والأهداف.
ولتخرج الصحف في كل مكان لتسب الرسول الأكرم عليه صلاة الله وسلامه، الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق، وليكون للعالمين بشيراً ونذيراً، وليصوروه إرهابياً قاتلاً أو عاشقاً للنساء، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، لقد حولوا البشرية إلى قطعان من الأنعام تبحث في شغف عن رغباتها وتمصمص شفاهها أسفاً على مآسي البشر، لكنهم ليسوا على استعداد للتخلي عن حقهم القانوني في زواج الشواذ من الرجال

والنساء، أو في الموت الرحيم كما يسمونه. والمضحك في الأمر هو النسيان المتعمد لتصريحات السادة الكبار في الإدارة الأميركية حول أن حكاية بن لادن لا قيمة لها على الإطلاق، وأن الأمر يتجاوز بن لادن بكثير، ولا يمكن للجنرال ريتشارد مايرز القائد العام للقوات الأميركية أن يخطئ حين يعترف ودون أن يدري ربما بقيمة ما يقول لمحطة N.N.C في الخامس عشر من إبريل عام 2002، وبوجود السيد دونالد رامسفيلد وزير الدفاع وعراب السياسة الدفاعية الأميركية «إن الهدف لم يكن على الإطلاق القبض على بن لادن»، وقد أعادت إذاعته ونشره وكالة أسوشيتد برس، ثم يعود «مايرز» ليكذبه وهو في غاية الحرج.

إن من الملفت والعجيب معاً والذي يثير الانتباه، التعتيم عليه بكفاءة غريبة وعالية هو التواجد الإسرائيلي الملحوظ على ساحة أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وفي صلب مجاله الحيوي، الأمر الأول هو دور المؤسسة المعلوماتية المتخصصة في البريد الإلكتروني «أوديجو» في ضاحية هرتزليا بالقرب من تل أبيب في نقل رسائل تحذير إلى الأميركيين قبل الحادث بحوالي ساعتين، والتبرير يقول إن اثنين من موظفيها قد استقبلا رسائل قبل ساعتين من الحادث تنبئ بضرب البرجين وبحدوث الهجوم (من من هذه الرسائل لسنا ندري)، وبالتالي فقد قامت أوديجو بإرسال الإنذارات إلى أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية والتي نقلت بدورها الإنذارات إلى الـ I.B.F.

لكن الحكاية التي روتها سيدة أميركية من سكان نيو جيرسي وهي تتابع بمنظارها الأبراج وهي تحترق، لاحظت ثلاثة من الشباب على سطح إحدى سيارات الفان البيضاء يلتقطون لبعضهم البعض الصور التي تظهر في خلفيتها الأبراج المستعرة، والأمر الذي أثار حفيظتها وفضولها هو الشعور الطاغي بالسعادة على وجوه أولئك الشباب، فالتقطت رقم السيارة واتصلت بشبكة C.B.A التليفزيونية، كما اتصلت بالشرطة الأميركية التي استطاعت الوصول إليهم حيث السيارة تتبع إحدى شركات نقل الأثاث، وكان ذلك في الرابعة بعد الظهر، ووجد رجال الشرطة داخل السيارة خمسة رجال أعمارهم بين الثانية والعشرين والسابعة والعشرين، كان أحدهم يخفي 4700 دولار داخل جواربه، وآخر يحمل جوازي سفر أجنبيين، كما اكتشفت حاوية تحتوي على بعض السكاكين وصورهم وهم سعداء باحتراق البرجين خلفهم في الصور، وكانت المفاجأة حين صرح سائق الفان واسمه سيفان كوزبرغ قائلاً: «نحن إسرائيليون ولسنا مشكلتكم، فمشاكلكم هي مشاكلنا والفلسطينيون هم المشكلة»، وقد اعتقل هذا الفريق وأحيلوا إلى التحقيق بتهمة التجسس وقام جهاز I.B.F بتفتيش مقر الشركة Urban Maving أوربان مافينج في نيو جيرسي، حيث فر صاحبها بعد التحقيق معه واستجوابه إلى إسرائيل.. لقد كانوا هناك لصالح الموساد، وتم إخلاء سبيلهم فيما بعد.

والسؤال الذي لم يطرح ولن يطرح بخصوص أوديجو ورسائل تحذيرها إلى اليهود في نيويورك والسلطات.

كيف وصلت هذه الرسائل الإلكترونية.. ومن أرسلها.. ولماذا أرسلها؟

إنها أسئلة بسيطة لكن الإجابات عنها ستكون هائلة الوقع والتأثير، ولذلك تم التعتيم كالعادة وتم نسيان المسألة برمتها ولم يشر لها أحد بعد ذلك حتى ولا في مجال التحقيقات التي تمت ولو بإشارة عابرة.

إن السيد لوران لم يكن الوحيد الذي كشف هذه الحقائق المخيفة التي تتراوح ما بين المصالح العائلية في الأعمال والبترول والبورصة التي تجمع بين كارتلات شريرة تتغي السطوة والقوة والمال والهيمنة بوسائل جهنمية وشيطانية، وتوجه سهامها إلى دين الإسلام والمسلمين ككبش محرقة ومبرر للولوج في تحقيق هذه الأهداف الشريرة، والعجيب في الأمر أن الإعلام كان الماكينة التي لم تتوقف عن الكذب والتدليس والتأصيل للشر في تناغم مع الجوقات السياسية ومخيمها السام، ولم يتحدث أحد عن نزاهة الإعلام وحياديته وحريته ومهنيته. دعونا من كل هذا فلنتحدث عن غوانتانامو، ولنعلي أصواتنا بالصراخ على الحقوق الضائعة لهؤلاء الإرهابيين الخطيرين على أمن العالم والمنصهرين تحت راية القاعدة، ثم يتضح في النهاية أنهم مجموعة من الأبرياء الذين كانوا يعملون إما في جمعيات إنسانية أو كانوا يعيشون هناك لسبب أو لآخر، ولا علاقة لهم بالإرهاب، كمصور الجزيرة هذا الشاب السوداني الذي أمضى سنوات طويلة من عمره تحت سياط الجلادين في غوانتانامو وأخيراً يفرج عنه.. لماذا أفرج عنه؟.. هل يمكن إطلاق سراح إرهابي بهذه السهولة من المعتقل؟، الإجابة: نعم، لأن الأمر كله لا يعدو أكاذيب مغلفة بأكاذيب وتسندها أكاذيب، كان لابد منها لإثارة الضجيج، ليس حول الحقائق الدامغة للمؤامرة، بل حول حقوق الإنسان، وهل تعاملهم كأسرى حرب أم إرهابيين، وها هم جميعاً يفرج عنهم بعد سنوات من التعذيب والاعتقال القسري الرهيب.

هل هذا هو الإرهاب الإسلامي؟، هل هناك علاقة بين الإسلام كنهج حياة يضمن للبشرية أمنها وسعادتها وبين القتل الممنهج بأساليب السجاجيد المحروقة Bombing Carpet، وملايين القتلى في أفغانستان والعراق والصومال وفلسطين؟ بالطبع نعم، هناك علاقة وثيقة بين الإسلام كدين وكهدي وبين المنهاج الشيطاني الملعون والمجرم، هذه العلاقة هي الصراع الأصيل بين الخير والشر، بين ضمان كرامة وإنسانية الإنسان في مجتمعات آمنة مطمئنة كريمة وعزيزة تصان فيها النفوس والأموال والأعراض، وبين مجتمعات اقتحمت على المجتمعات الحيوانية هدوءها وتفوقت عليها وجعلت من الإنسان عبداً للدولار واليورو والأجساد البيض والتلذذ برؤية الجائعين حول العالم والمرضى والمحرومين دون مبالاة أو اهتمام.

ولم يعد العالم ولا الإعلام يتذكر إرهاب «الانثراكس» أو الحجرة الخشبية، ومرت أحداثها مرور الكرام، ولم يسأل أحد أين نتائج التحقيقات ومن أين أتت رسائل الجمرة الخبيثة التي قتلت الأميركيين ولا من الذي صنعها.

إلا أن الملاحظ أن رسائل «الانثراكس» الجمرة الخبيثة كانت تشق طريقها إلى جهتين محددتين في أميركا ـ الإعلام ـ وأعضاء البرلمان، ولم يكن الأمر وليد الحظ، بل كان وليد تخطيط دقيق، حيث سيتولى الإعلام التهليل وإثارة الهلع في نفوس الشعب الأميركي والرأي العام الدولي بالتبعية والتحريض على هؤلاء الإرهابيين المسلمين الذين ينحرون الناس ويقتلونهم بشتى الوسائل التكنولوجية الحديثة، بما فيها الوسائل البيولوجية ـ أي أنهم قادرون على تدمير المجتمع الدولي بأكمله وما من أحد في أركان المعمورة بمنأى عن أذاهم فليتحد الجميع في كراهية

الإسلام والمسلمين وليكونوا صفاً واحداً في إلحاق الهزيمة بهم واجتثاث جذورهم من الأرض ـ كان هذا بالضبط مطلباً رئيسياً، إضافة لكونه ملحقاً مهماً ورافداً آخر من روافد التدليس والتهليل ضد الإرهاب الإسلامي. والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها الذين يخضعون جباههم لله خشوعاً وسجوداً وعبادة ينظرون مذهولين إلى ما يجري دون أن يفهموا ما يحاك وما يدبر، وبالتالي ينقسمون ما بين ناقم وغاضب وما بين مؤيد لما يحدث ظناً منه بصدقية ما يحدث، ولم يعلموا أنهم ضحايا لأكبر عملية نصب سياسي عرفه التاريخ، هذا على مستوى الإعلام، أما على مستوى البرلمان فحين تصل رسائل الانتراكس إلى مكتب السيناتور «ليهي» ومكتب السيناتور «داشل»، فعلى البرلمان أن يفهم أن الإرهاب يستهدف أميركا وأمنها وحريتها، وعليه فإن على المعارضين في مجلس الشيوخ والبرلمان ألا يعترضوا إجراءات الإدارة وسعيها لمكافحة الإرهاب.

كانت خمس رسائل بالتحديد ثلاثا منها إلى ثلاث مؤسسات إعلامية هي محطة NBC وEnquirer National ناشيونال إنكوايرر، ونيويورك بوست وما أدراك ما الإعلام الأميركي ومؤسساته المهيمنة على عقول البشر، وكيف يتم القصف الإعلامي للأدمغة حتى يعاد تدويرها فكرياً وإخضاعها نفسياً دونما اعتراض، وإذ بالأمر يبدأ بالانكشاف حين أعلنت السيدة «باربرا هاتش روزبنرغ» من اتحاد العلماء الأميركيين أن حوالي خمسين باحثاً فقط وهم معروفون تماماً هم القادرون على إنتاج هذا النوع من البكتيريا القاتلة Anthrax الجمرة الخبيثة، وأن هذا النوع من الجمرة الخبيثة يتم إنتاجه في مختبرات الجيش الأميركي في الولايات المتحدة.

ومن المدهش أن القاعدة العسكرية الأميركية في «كوانتيكو» وقبل حدوث مشكلة الجمرة الخبيثة تلقت رسالة من مجهول تتضمن استنكارا لأفعال باحث سابق في Usamriid، لكن يبقى الفضل للمباحث الفيدرالية الأميركية I.B.F في تمييع الأمر والتعتيم عليه، ويبقى المسلمون والإسلام في الواجهة إرهابيين وقتلة وسفاحين ويجب استئصال شأفتهم.

إنني أستعين هنا بكتاب «الخديعة المرعبة» للكاتب الفرنسي تيري ماسون، والذي أوضح كسلفه إيريك لوران، حقائق كانت غائبة ومجهولة في الوقت الذي كنا ولازلنا نخضع أدمغتنا لأصغر عملية غسيل أدمغة مهينة وحقيرة، فنحن كمسلمين نعلم يقيناً من خلال ما علمناه في أبسط صور التعليم الديني أن قتل النفس جريمة لا تغفر، وهي بنص القرآن جريمة في حق الإنسانية كلها «وأنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً». وأن محمداً رسول الله إلى البشرية، كان مثالاً على الرحمة والتسامح وكرم الخلق والعفو عند المقدرة والعدل والصدق ونحن حين نقول هذا، فإن شهادتنا تظل مجروحة أمام الآخر، أما إذا قالها الآخر فهي الحق وهذا ما قالوه في محمد صلى الله عليه وسلم، إنني في حقيقة الأمر أتمنى ويبقى الأمر مجرد أمنية، أن يقرأ الغرب، الإسلام، قراءة صحيحة، والدعوة هنا ليست موجهة للسياسيين ولكن للمواطنين الغربيين الذين نكن لهم احتراماً كبيراً، لهم كبشر أولاً ولنتاجهم العلمي والتكنولوجي العظيم وحضارتهم التي نعلم أننا شركاء أساسيين في صنعها كأمة إسلامية، وضع علماؤها أساس الانطلاقة الأوروبية لهذه المدنية التي يشهدها العالم. وعليهم أن يفهموا أن الإنصاف والاعتراف بالآخر هو الطريق لصناعة مستقبل إنساني مشترك آمن ورغيد.

ودعونا لا نغادر قضية الحادي عشر من سبتمبر قبل أن نعرف الحقيقة الغائبة وبامتنان لشرفاء الغرب الذين تطوعوا مدفوعين بإنسانيتهم وأخلاقهم وثقافتهم الإنسانية لكشف هذه الحقائق الغائبة، وأقصد السيد إيريك لوران والسيد تيري ميسان بكتابيهما الشيقين وما أورداه من حقائق رهيبة وفضلها في إلقاء الضوء على خيوط المؤامرة التي حدثت في الحادي عشر من سبتمبر وما أعقبها من جرائم في حق الإنسانية من قتل مئات الألوف من البشر أطفالاً ونساءً وشيوخاً، والتسبب بمآسي وويلات سوف لن ينساها التاريخ الإنساني من أجل حفنة دولارات وحياة مرفهة واستعباد للآخرين.

سؤال آخر لابد من طرحه.. بل أسئلة:

ـ هل النفط أغلى وأعلى قيمة من حياة البشر ودمائهم؟، وهل يجوز أن تتغذى حضارة إنسانية (تسمى هكذا) بدماء إنسانية؟، وهل تدوم حضارة إنسانية وتزدهر بشقاء الإنسانية وعلى أشلائها؟.

لا أظن ذلك على الإطلاق ولا يقبله عاقل في هذا العالم خاصة في المجتمعات الغربية التي قدست العقل والفكر والمحسوس والملموس، فكل الحضارات الإنسانية عبر التاريخ سادت وازدهرت حتى وصلت إلى قمة قوتها، ثم ضعفت وانهارت وأبيدت، وهذا هو منطق صيرورة الحضارات عبر التاريخ، وطبيعة نشوئها وسقوطها، وكل الحضارات هذه سقطت بسبب أمراض اعترتها وأصابتها، أهمها غياب الجوانب الأكثر أهمية والرئيسية التي تعتبر ركائز الثبات لهذه الحضارات وديمومتها، وعلى رأس هذه الركائز الجوانب القيمية والمبادئ الإنسانية التي تصنع وتنظم وتصيغ العلاقات بين البشر في تناغم وتواؤم واتساق بشكل ثابت لا يتغير ولا تحكمه أهواء البشر بتقلباتهم واجتهاداتهم، الذي يعتبر الخطأ فيها عنصراً دائماً وأساسياً، ولن يتأتى هذا إلا بمرجعية سماوية عظيمة وهدي رباني لا يتغير ولا يتقلب ولا تغيره نظريات عالم هنا أو فيلسوف ومنظر هناك.

وهذا الهدي الرباني جاء كاملاً ومكتملاً في الإسلام كنهج حياة يضمن للبشر حياة آمنة مطمئنة بشقيها المادي والروحي ويضمن للإنسان تحرراً تاماً وحرية كاملة من استعباده لحساب شهوات دنيوية زائلة لم يحرمه منها أبداً، فلكل البشر الحق في الامتلاك والاستمتاع وتحقيق الرغبات البشرية ضمن نظام يحفظ لكل البشر نفوسهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم، والإسلام كمنهاج رباني مهدى للبشر من الخالق، يتغي أن يعبر البشر حياتهم بسلام لا تشقيهم أموراً مادية يعبدونها وتكون غايتهم في الدنيا، ففي الوقت الذي منحهم الحق في الاستمتاع بكل ما في الحياة دفع ببصرهم وبصيرتهم إلى ما خلف الحياة وما بعدها في استهداف عظيم لتسامح وحب وتعاون وأمان وسلام بين البشر.

إنني أتساءل أيضاً، وأضع هذا التساؤل أمام المواطن الغربي على وجه الخصوص، باعتباره صاحب المدنية الحديثة وقائدها والحائز أوسمة القوة الساحقة في الاقتصاد والتكنولوجيا والقدرة العسكرية بالتبعية وبطبيعة الأمر:

ـ هل يمكن لدين يحرم القتل وإزهاق النفس بلا ذنب ولا جريرة تحريماً مشدداً ويعتبر أن قتل نفس واحدة بلا نفس أو فساد في الأرض جريمة ضد الإنسانية كلها «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»، أن يشوه بهذا الشكل في نفوس وعقول غير المسلمين، خاصة في الغرب؟.
ـ هل يمكن لدين لا يحض أهله على قتال إلا مكرهين ودفاعاً عن النفس أن يقبل القتل كأسلوب حياة وعادة وإرهاب؟.
إنني أشك في فهم الغرب للإسلام الذي حرم في الحروب حتى قطع شجرة قائمة أو إيذاء طفل أو شيخ أو امرأة، ورسخ آداب التعامل مع الطبيعة والبيئة وحمايتها وصيانتها.
لقد سقطت البشرية في مستنقع آسن من الشقاء والخوف بسبب التسليم لأنماط حياة وضعت عقول الناس وأدمغتهم تحت مطرقة الإعلام المتحالف مع سدنة القوة والمال، وأصبح البشر أسرى لقصف متواصل لعقولهم، وهنا أستعين مقولة البروفيسور «فيليب تايلور» الأكاديمي الإعلامي الشهير بما معناه «إذا كانت الحروب العسكرية قصفاً بالطائرات والصواريخ والمدفعية للبشر والممتلكات والمنشآت وتدمير للبنيات البشرية مادياً، فإن الإعلام قصف متواصل للعقول يعد تدويرها وصياغة تفكيرها» إنه قصف لكنه من نوع آخر يحول الأكاذيب إلى حقائق ويشوه بمهارة كل ما هو حقيقي وجميل في عقول البشر ويصيغ تفكيرهم وأفكارهم بما يتلاءم وغاياته وأهدافه.
إن الإرهاب والقتل والجرائم التي حدثت لا يمكن لمسلم انطلاقاً من قيمه الدينية أن يقبلها أو يقرها ولا يمكن لإنسان مسلم أن يقبل قتل الأبرياء وإزهاق أرواح البشر على الإطلاق، انطلاقاً من قيمه ومقدسه وهذه أمور بديهية ومسلمات لا شك فيها، في الإسلام الذي لا يفهمه الآخر في الغرب، وتلك مشكلة ضخمة وضعته تحت رحمة «الميديا» والإعلام الذي صنع في نفسه خوفاً من دين حض على التراحم ومكارم الأخلاق، إن الجانب العقدي في الإسلام لا يتعدى جزءاً صغيراً جداً يعتمد على الإقرار بالوحدانية أو الجانب الإيماني القلبي وباقي الأركان الخمسة صلاة وصياماً وزكاة وحجاً، لا يبدو منها ظاهراً سوى الصلاة والحج إن استطاع الإنسان المسلم إليه سبيلاً، إلا أن الجانب الدنيوي ونظام الحياة في الإسلام هو الغالب من خلال التشريعات العظيمة، ثم مكارم الأخلاق بشموليتها ورفعتها وقيمتها للناس ومساواة لا لبس فيها بين البشر أسودهم وأبيضهم وأصفرهم لا فرق ولا تمييز بين جنس وجنس، واحترام الأديان الأخرى احتراماً تاماً، ولننظر فقط في تعامل المسلمين والإسلام مع اليهود والنصارى أثناء الفتوحات، حيث تكفي العهدة العمرية المعلقة على جدران الأقصى لتبين كيف هو الإسلام وما هو الإسلام، ولم يذق اليهود طعم الراحة والأمان إلا في ظل الحكم الإسلامي على مر تاريخه، وكيف كانوا مواطنين آمنين مبدعين في ظل الحكم الإسلامي على مر العصور، وبالمقابل كيف كانوا يعاملون في أوروبا وكيف كانوا يطاردون في شوارعها وجاداتها، وكيف كانوا يعيشون منبوذين مطاردين مبغوضين تحت سطوة الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، إلى أن جاء مارتن لوثر في بدايات القرن السادس عشر بمذهبه البروتستانتي وما سمي بفترة الإصلاح الديني في أوروبا، وليسألوا اليهود عن تاريخهم مع المسلمين في الأندلس وكيف كانوا رافلين في حلل الطمأنينة والمواطنة الكاملة، وكيف أبدعوا مع المسلمين ومنهم موسى بن ميمون الطبيب الشهير والمفكر، ثم ليسألوا اليهود عما حدث بعد هزيمة المسلمين وخروجهم من الأندلس وكيف عاملهم الإسبان والأوروبيون بعد ذلك.
ـ كيف يمكن لنا نحن المسلمين والعقلاء أن نسمح لحملة تزييف إعلامية وماكينة دجل أن تشوه ديناً عظيماً وتراث أمة عريقة بهذا الشكل المخجل، وها هم الفرنسيون الشرفاء إيريك لوران وتيري ميسان يثبتون في تحقيقاتهم بالأدلة الصارخة أن ما حدث كان أكذوبة فاضحة ومنظومة في الحادي عشر من سبتمبر.. إن قارئ كتاب «الخديعة المرعبة» لتيري ميسان، سوف يصاب بالذهول من استعراضه الخطير للأدلة القاطعة، خاصة ما أورده عن سرقة رموز تحديد الهوية والبث الخاصة بالرئاسة وكيف قضى الرئيس بوش يومه في طائرته الرئاسية متنقلاً بين القواعد الأميركية وإنزال نائب الرئيس ديك تشيني بالقوة إلى الغرفة المحصنة أو الملجأ النووي تحت الأرض بالقوة من قبل رجال الخدمة السرية، وكيف لم يشر الرئيس في كلمته للشعب الأميركي في الواحدة والنصف ظهراً إلى إرهاب أو إرهابيين على الإطلاق.
ويرتب ميسان في كتابه «الخديعة المرعبة» عناصر الحدث كالتالي بعد ضرب الأبراج:
ـ الإعلان عن حريق في مبنى ملحق بالبيت الأبيض.
ـ تلقي الوكالة السرية اتصالاً هاتفياً بخصوص فرض شروط ما ومن ثم تبدأ الوكالة بحماية الشخصيات الهامة.
ـ يقوم الرئيس بوش بالمشاركة في المفاوضات بعد الظهر ومن ثم يعود الهدوء في المساء ـ ثم يتم اتهام جماعات إرهابية مسلمة بقيادة صنيعتهم بن لادن.
ويشير تيري ميسان إلى أن منفذي هجمات الحادي عشر من سبتمبر هم جماعة موجودة في قلب النظام الرسمي الأميركي كانت تريد ونجحت في فرض سياستها على الإدارة الأميركية (الرئيس بوش تحديداً).
إن قضية الحصول على الرموز الشفرية السرية والتي يحملها عدد محدود جداً من القيادات العليا (كل فرد لا يحمل أكثر من رمز واحد) وفي سرية مطلقة من قبل هؤلاء الإرهابيين، لم تثر أي فضيحة ولم تلق أي اهتمام على الإطلاق، إن العقل يتوقف تماماً من الغضب حين يهان بهذه الطريقة.
ومن المضحك أن مدير وكالة المخابرات المركزية السابق جيمس وولش يقول إن هناك جواسيس في كل جهاز استخبارات أميركي هم الذين حصلوا على هذه الرموز وأن هذه العملية قد تمت على أيدي المخابرات العراقية الخطيرة، إنها إهانة بالغة لعقول البشر أن يقال هذا من أحد أهم الشخصيات في أميركا، بل إنها إهانة لأرواح الضحايا الأبرياء الذين قضوا دون ذنب أو جريرة والذين يسقطون يومياً حتى الآن بالمئات.

والمثير أيضاً إلى حد الذهول هو قضية «البنتاغون» والطائرة التي ضربته، وهي قصة سوف تدخل التاريخ باعتبارها أكبر إهانة للعقل البشري، حيث لم يكن هناك أي أثر لبقايا طائرة وباستعراض «ميسان» الفني وأقوال الخبراء يستحيل على طائرة ركاب أن تضرب مبنى لا يتجاوز ارتفاعه 24 متراً، وفي منتصفه، أي أنها هبطت بشكل يستحيل معه تخيل طائرة من طراز بوينغ 757 للشحن يبلغ طولها أكثر من 47 متراً وعرضها الأقصى أكثر من 38 متراً أن تهبط ثم تسير أفقياً لتصطدم بمبنى وعلى ارتفاع 12 أو 13 متراً، وكما يسخر السيد ميسان، لم يتعرض عمود إنارة في الفناء أو الساحة أمام البنتاغون للخدش.

كل هذا يعني أن هذا خيال اخترعه البعض وصدقه العالم رغماً عنه، ولم تكن الطائرة سوى صاروخ من الصواريخ المصممة لاختراق الأبنية والخرسانات القوية، ناهيك عن ما أورده تيري ميسان من دلائل خطيرة وعناصر إثبات كذب لا شك فيها، ثم يتساءل:

ـ ما سبب الانفجار الذي استهدف البنتاغون؟

ـ ماذا جرى لرحلة الطيران الأميركية 77؟

ـ هل مات ركابها؟

ـ من قتلهم ولماذا؟

ـ وإذا لم يقتلوا.. أين أصبحوا؟

ويتمنى السيد ميسان، وأنا معه، على الإدارة الأميركية أن تجيب عن هذه الأسئلة، وأنا أقول للسيد ميسان: إن هذا لن يحدث أبداً حتى مع انقضاء الفترات القانونية للكشف عن الأسرار والوثائق.

ويورد ميسان نص مقابلة CNN مع فخامة الرئيس المصري محمد حسني مبارك، والنص موجود على موقع الرئاسة المصرية، كما يشير ميسان العنوان وذلك يوم 15 سبتمبر 2001: http://www.presidency.gov.eg/html/2001sept11_press_2.html، حيث يقول سيادته باعتباره كان طياراً:

من قام بذلك قد حلق طويلاً فوق هذه المنطقة على الأرجح، فالبنتاغون ليس مبنى مرتفعاً جداً، وللانقضاض عليه بهذه الطريقة لابد من أن يكون الطيار قد حلق طويلاً فوق المنطقة ويعرف كل العقبات التي ستواجهه وهو يطير على علو منخفض بطائرة كبيرة قبل أن يرتطم بالبنتاغون في زاوية محددة. أحدهم قد درس العملية جيداً وحلق طويلاً فوق هذه المنطقة.

ـ CNN: هل تفترض أن العملية داخلية؟ هل يمكن أن أسألك من وراء ذلك برأيك؟

ـ الرئيس: بصراحة لا أرغب في الإدلاء باستنتاجات سريعة.. عادة عندما تقبضون أنتم في الولايات المتحدة على أحد ما تسري الإشاعات وتقولون آه ليس مصرياً، بل سعودي، إماراتي، وذلك كله أنهم عرب ويعتقد الناس أن العرب هم الفعلة، يجدر بنا أن ننتظر فلنتذكر أوكلاهوما سيتي، استهدفت الإشاعات العرب مباشرة ولم يكن العرب مسؤولين عن ذلك كما تعلم. لننتظر بعد ونرى ما ستكون عليه نتائج التحقيق، فهذه الهجمات التي استهدفت الولايات المتحدة صعبة بعض الشيء على طيارين درسوا في فلوريدا، كثير من الناس يتدربون لحيازة اجازة في الطيران إلا أن ذلك لا يعني أنهم قادرون على أعمال إرهابية كهذه، أتكلم بصفتي طيار سابق، أنا أعرف حق المعرفة، فقد قدت طائرات كبيرة جداً وقدت طائرات مطاردة، أعرف ذلك تماماً وليس الأمر سهلاً، لذلك لا أعتقد أنه علينا الاستنتاج بشكل سريع، إذا كانت إدارة بوش قد لفقت الهجوم على البنتاغون لتخفي مشاكل داخلية، ألم تحجب كذلك بعض الأمور فيما يتعلق بالهجمات التي استهدفت مركز التجارة العالمي؟

كان هذا نص المقابلة التي أجرتها CNN مع رئيس دولة كان طياراً سابقاً ويفهم الأمور الفنية الخاصة بالطيران وبالطائرات.

لغز كبير نحن نفهمه تماماً، لكن كيف يمكن لهؤلاء الإرهابيين التخطيط والتنفيذ بهذه البساطة والسهولة التي جرت بها هذه الجريمة، دعونا نحاول من خلال الفرضيات المقبولة عقلاً ومنطقاً.

فرضيات واجتهادات تفسيرية

من خلال التمعن في ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر وتبعاته وقراءة أحداثه بمنطق عقلاني وفهم عميق، وبالنظر إلى ما كتبه العديد من المحققين وعلى رأسهم الفرنسيان إيريك لوران وتيري ميسان في كتابيهما «الوجه الخفي» و«الخديعة المرعبة»، ومن خلال تفهم التوجهات السياسية والاقتصادية الدولية، والتي يقودها الرأسماليون الغربيون والشركات العملاقة، وبقراءة سريعة للدراسة الشهيرة أو الأطروحة التي نشرها معهد الدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفارد صاحبة الحظ الأوفر في تخريج العديد من السياسيين البارزين، والتي تضمنت في عمقها فلسفة «صدام الحضارات» التشديد على الإسلام باعتباره، كما قال البروفيسور «صامويل هنتنجتون»، الدين الذي يهدد الثقافة الغربية وقيمها، وإنه العدو القادم والمتنامي، وذلك حين ظهرت هذه الدراسة للنور في بداية عقد التسعينيات وتحديداً 1990/89 بعد انهيار الاتحاد السوفياتي السابق، وانفراط عقد حلف وارسو العسكري وما كانت تمثله الشيوعية من تهديد خطير ظل جاثماً على أنفاس المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة أكثر من 60 عاماً، وما صاحبه من حرب باردة أوقفت أنفاس العالم مرات كثيرة خوفاً من صدام نووي قد يعصف بالبشرية كلها، كان لابد من اتخاذ خطوات ما للبدء في تنفيذ النظرية الكونية الإمبراطورية للتوجه الرأسمالي الليبرالي الغربي باتجاه هذا الخطر الذي يمثله الإسلام، ولم يكن هناك أفضل من بن لادن الذي صنعه الغرب وتحديداً وكالة الاستخبارات الأميركية، هو وتنظيمه الإرهابي، لبدء صناعة المبررات القانونية والأخلاقية لتنفيذ المرحلة الجديدة من الرؤية السياسية التي يجب أن تبدأ مع بداية القرن الحادي والعشرين، وكان ما كان تحت سمع وبصر المؤسسات الأمنية المشهود لها بالتفوق والفاعلية، والتي تتابع دبيب النمل في أرجاء الكرة

الأرضية، وقد كان حيث ترك الإرهابيون يفعلون فعلتهم الإجرامية وتم الإخراج الإعلامي البانورامي والدراماتيكي لها بأفضل ما يكون الإخراج.

هذه الفرضية قد تكون الأقرب إلى المنطق في أفضل الأحوال، إلا أن ما شابها من عورات ونقائص خاصة ما يتعلق بالرموز الشفرية التي تحدث عنها الفرنسي تيري ميسان، والشك الكبير في ضربة البنتاغون، الذي يرجح أن ضربته نتجت عن صاروخ قادر على اختراق جدران البنتاغون المحصنة جداً، والتي لا تستطيع طائرة أن تفعله، خاصة أن الضربة قد أحدثت فتحتين في المبنى من جهة الاصطدام ومن الناحية الأخرى، مما يعني أنه اختراق كامل من الجهتين المتقابلتين للمبنى، وهذا أمر لا يمكن للطائرة أن تفعله، إضافة إلى الوضع الفني لمسار الطائرة وما تم تناوله بهذا الشأن.

والأمر الذي يجعل هذه الفرضية مقبولة للعقل هو حالة البورصة الأميركية وما سمي بجرائم المطلعين والمراقبة المكثفة لأي حمى تجتاح البورصة باعتبارها انعكاساً لأحداث سياسية داخلية، إذن كان هناك علم كامل ويقيني بما سيجري إذا ما أضفنا التحذيرات الاستخباراتية والإنذارات التي أرسلتها أجهزة مخابرات متعددة للأميركيين بخصوص ما سيحدث، وتم الصمت وعدم التحرك لإيقاف ما سيجري باعتبار حدوثه له أهمية لدى فريق يرى مصالحه في هذه الضربة الإجرامية، والفرضية الثانية: هي أن التخطيط والتنفيذ تم بإشراف كامل وتغطية كاملة من خلال جهات أميركية وبشكل تام وهذا أمر مستبعد قليلاً رغم أنه قابل للحدوث وهناك سوابق تاريخية تؤكده كما حدث مع العراق في حربه مع إيران حين أقدمت طائرة عراقية على قصف بارجة أميركية في مياه الخليج بصاروخ اكسوسيت فرنسي، وكانت القوات الإيرانية في ذلك الوقت قد تمكنت من قطع طريق بغداد ـ البصرة وتوغلت قواتها في أراض العراق، فما كان من بد من قصف القوات الإيرانية وإعادتها إلى الخلف وإعادة التوازن إلى القوات المتحاربة.. لقد أشار إلى ذلك السيد حامد الجبوري الوزير العراقي السابق في حديثه إلى فضائية الجزيرة في برنامج «شاهد على العصر»، وأشار إلى لقائه مع السفيرة الأميركية مصادفة في أحد اللقاءات الاحتفالية الدبلوماسية ويمكن مراجعة ذلك من خلال حديثه إلى الجزيرة.

والسابقة الأخرى وهي ما حدث خلال الحرب العالمية الثانية، وكيف كانت الولايات المتحدة تواقة لدخول الحرب وصد التمرد النازي والفاشستي الممثل في ألمانيا وإيطاليا واليابان، ويمكن العودة إلى الأدلة التي نشرت في كتاب للسيد عبدالحي زلوم وكيف منعت أميركا البترول عن اليابان وجمعت أسطولها في بيرل هاربور ليرتكب اليابانيون حماقتهم التاريخية كما أثبت التاريخ.

وبذلك فإن كل الطرق كما يقولون تؤدي إلى روما، أي إلى دحض الوقائع بشدة، لكن يبقى الإسلام بسماحته واعتداله وقيمه العظيمة ورسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم نهباً للتشويه.

«محمد» صلى الله عليه وسلم

إننا نتغي من خلال طرحنا واستعراضنا لما سبق أن نفند اتهامات ظالمة وقسوة بالغة تقع على دين عظيم ونبي أكرم حمل رسالة الله إلى البشرية ليهديها إلى سبيل الرشاد والأمن والسلام، ولنعلن من خلال فكرنا وما تحمله عقولنا ونفوسنا كمسلمين، أننا وانطلاقاً من فهمنا العميق لرسالة الإسلام وشريعته، نرفض الإرهاب في شتى صوره وأشكاله، ونؤمن بأن البشر كلهم إخوة تحت سقف الحياة، متعاونون لصنع الحضارة والرفاه والسلام للبشر، وأن كل من يقتل الأبرياء أو يفجر أو يفسد في الأرض أو يروع الآمنين ويدمر البيوت على رؤوس أهلها ويصرع الأطفال، أياً كان هذا الأمر وتحت أي مسمى هو مجرم في حق الله تعالى وفي حق أمته وفي حق البشرية.

إننا عرفنا رسول الله صلوات الله عليه وسلم، مثالاً للعدل والرحمة والتسامح والحكمة والسلام، جاء بما تنشده النفس البشرية من قيم عليا وما تطمح إليه من سعادة وأمن وسلام، وسوف أستعرض هنا بعض ما قاله مفكرو الغرب وسياسيوه عن محمد صلى الله عليه وسلم، يقول الكاتب الغربي الكبير «ليونارد»: «إن كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله، وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له وتفانى في خدمته بقصد شريف ودافع عظيم، فإن هذا الرجل هو بلا شك محمد نبي الإسلام» صلوات الله عليه.

وقال السير «وليم موير»: «تجمع كل مراجعنا والاحتشام وطهارة الخلق على صورة نادرة الوجود بين المكيين».

إنني أبعث بهذه الرسالة إلى أولئك الذين يصورون محمد صلى الله عليه وسلم بشكل لا يليق بنبي من أنبياء الله، وهو النبي الخاتم الذي بعثه الله ليكون رحمة للعالمين، وإلى أولئك المتنطعين والجهلاء من الغربيين والشرقيين على السواء، الذين بهرتهم أضواء المدنية الزائفة فتخيلوا زوراً وظلماً أن هذه البهارج والزخارف الدنيوية إله يعبدونه من دون الله، طمعاً في زائلة من زائلات الدنيا أو رهباً وخوفاً من كلمة حق ضد جور شيطان بائس.

إلى كل الجهلاء شرقاً وغرباً الذين يتخيلون بجهلهم أنهم قد يطفئون نور الله العظيم والله أتم نوره ولو كره الكافرون. كل هؤلاء لو قرأوا ما كتبه علماؤهم الذين يؤمنون بهم حول عظمة الله ما جرأت أصابعهم ولا عقولهم على أن تفكر بإيذاء أمة تمثل وتشكل ربع سكان المعمورة، كانت خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وأهدي إليهم أقوال علمائهم هم لعلهم يؤوبون إلى عقولهم ورشدهم ويتبينون طريق الحق.

هذا هو د.والتر أوسكار لندبرج عالم الفسيولوجيا والكيمياء يقول: «إن العلم يؤدي إلى الإيمان بالله لولا شيوع الإلحاد والتعصب الأعمى، وأن في الكون دلائل على قدرة الله يجب على العالم أن يعرفها».

وهذا هو د.إيرفنج ويليام نوبلوتش عالم الطبيعة يقول: «إن بعض الناس ينظرون إلى الحياة نظرة مادية ويفسرونها تفسيراً مادياً يعتمد على المصادفة، ولكن العلوم لا تستطيع خلق السعادة والجمال والحق، وأن تحللها ولكن في الوقت نفسه تستطيع أن تثبت وجود الله».

وهذا هو د.جون وليام كلوتز عالم الوراثة يقول: «إن النبات وتكوينه والحيوانات البرية ومعيشتها، تحت ظروف خاصة، لابد لها من منظم» سبحان الله.

وهذا هو د.جورج إيرل داينز عالم الطبيعة يقول: «إن المشتغل بالعلوم يستطيع أن يتأكد من أن هذا الكون له نظام وخالق، إذا نظر إلى كل ما حوله من ذرات وكواكب وأحياء وأن هذا الإله ليس مادياً وليس له مثيل» سبحانه الله.

وهذا هو د.بول كلارنس إيرسولد أستاذ الطبيعة الحيوية يقول: «إن كل إنسان يستطيع أن يثبت أن لهذا الكون إلهاً وأن هذا الكون لا يقوم على المصادفة إذا مزج بين الناحية المادية والروحية بدون تحيز» سبحان الله.

وهذا هو د.توماس ديفيد باركسن أستاذ الكيمياء يقول: «إن الناظر للوزن الجزيئي للماء وهو (18)، يتوقع أن يكون غازياً تحت درجة الحرارة المعتادة والضغط، فالنشادر مثلاً تكون غازية عند درجة حرارة ناقص 73 وتحت الضغط الجوي المعتاد ووزنها الجزيئي (17)، ووجود الماء على الحالة السائلة في درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر، ولصفات الماء الأخرى تأثير على درجة حرارة سطح الأرض وكذلك تلك الصفة التي تساعد على حياة الكائنات الحية في الماء عندما يتجمد، وللماء فوائد أخرى في حياة الإنسان، وهذا درس واحد من الماء علمنا فيه أن لهذا الكون إلهاً ونظاماً».

ويقول د.ميريت ستانلي كونجدن عالم الطبيعة والفلسفة: «إن الاستدلال المنطقي في كثير من الأحيان هو الذي يوصلنا إلى بعض الحقائق الطبيعية وقد استخدم كثيراً في علم الفلك، فالأجرام والكواكب لا تخضع للتجربة، ولكننا وصلنا إلى نتائج مفيدة في هذا العالم استفاد منها الإنسان، وكذلك في علم الذرة عرفت آثارها وخواصها، ولذلك يمكن أن نستخدم الاستدلال المنطقي في إدراك الله ومعرفة صفاته، فمن الثابت المنطقي أن له صفات مثل الحكمة والقدرة والإرادة ولا يمكن أن يصف الإنسان شيئاً مادياً بشيء غير مادي، وكذلك لا يمكن للعلم أن يفسر ظواهر مادية مثل التمثيل الضوئي ودورة المياه في الطبيعة ودورة ثاني أكسيد الكربون وما لا يحصى من العجائب التي يمكن أن تقوم على المصادفة العمياء والعشواء ولابد أن يكون هناك إله قادر ذكي عظيم» سبحان الله.

وهذا هو د.روبرت مويس بيج عالم الطبيعة وأول من اكتشف الرادار عام 1934 يقول: «لإدراك وجود الله يجب أن نضع أمام أعيننا أننا لا نستطيع أن نفسر جميع الظواهر الموجودة أمامنا بعلمنا لأن حواسنا قدرتها محدودة ضئيلة وأن الإله ليس مادياً يحدد بعوامل الزمان والمكان ويجب أن يكون شرط الإيمان هو أن تكون هناك علاقة بين الإنسان وخالقه، فعندئذ تغمر المحبة قلبه ويصبح مؤمناً بالله».

وتعالوا إلى د.جون كفيلاند كوثران عالم الكيمياء والرياضيات حيث يقول: «توجد عوالم ثلاث (عالم المادة)، (عالم الفكر ـ العقل)، (عالم الروح)، وإن ما يمكن أن تقدمه الكيمياء في هذا المجال سيكون محدوداً لأنه قليل من كثير فيه والكيمياء علم مادي لا صلة له بالروح، فكيف تصنع المصادفة هذه القوانين؟ وترتيب العناصر في جدول دوري (ماندليف) ترتيباً دورياً أدى لاستنباط صفات عناصر مجهولة لا يمكن أن تتحكم في ذلك الصدفة والعشوائية، فهل يمكن التنبؤ بذلك إذا كانت تتحكم فيه الصدفة؟ والعناصر رغم عدم اتحادها في اللون والكثافة وسرعة التفاعل والميل المغناطيسي والحالة الموجودة عليها، فإنها تتكون من بروتونات ونيوترونات داخل النواة ومن إلكترونات خارج النواة في مدارات مختلفة، وهذه البروتونات والنيوترونات والإلكترونات تختلف في أعدادها من مادة لأخرى، فهل ذلك يترك للمصادفة العمياء أو أن المصادفة هي التي أوجدت هذا النظام؟ لابد إذن من وجود إله قادر حكيم منظم» سبحان الله العظيم.

وهذا هو د.إدوارد لوثر كيسيل متخصص علم الحيوان والحشرات يقول: «القانون الثاني للديناميكا الحرارية يثبت أن لهذا الكون بداية ولا يمكن أن يكون أزلياً، فهنالك انتقال للحرارة من الأجسام الساخنة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث ذلك بالعكس إلا بتأثير قوة ذاتية، ومعنى ذلك أنه سيأتي اليوم الذي تتساوى فيه درجات الحرارة وتتوقف العمليات الحيوية، ولما كانت الحياة مستمرة وقائمة إذن لابد أن يكون لهذا الكون بداية ولابد لها من مبدئ ومحرك أول وهو الله وعملية التطور هي أحد عوامل عملية الخلق والذي يقوم بذلك هو الله وليست الطبيعة الصماء ولا الصدفة العمياء» سبحان الله العظيم.

إن نظرة واحدة على نسبة الغازات في الكون وتناسبها مع ضرورات الحياة البشرية كالأوكسجين مثلاً ونسبته التي لا تتعدى حاجز 21% من الهواء والتي لو زادت مثلاً إلى 50% لاحترق العالم لا يمكن أن تكون من صنع بشر أو طبيعة تلك التي تنظم النسب بهذا الشكل، هذا طبعاً بالإضافة إلى النسب الأخرى من الغازات كالنيتروجين الذي يمثل 78% من الهواء أو ثاني أكسيد الكربون الذي يمثل 3/10 من 1% أو الأرجون الذي يمثل 9/10 من 1%، وغيرها من المكونات الغازية فقط لا يمكن لأي أحمق أو جاهل حتى أن يزعم أن طبيعة صنعت هذا وليعود أولئك الجهلاء إلى د.كريس موريسون رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك، ليقرأوا ما قاله في هذا الخصوص حين قال هذا الرجل العالم الكبير: «إذا أردنا أن نثبت وجود الله وتنظيمه وحكمته وقدرته فلنتخذ من الأوكسجين مثلاً على التنظيم المحكم إلى غير حد»، فسبحان الله وتعالى عما يصفون، أليس ذلك أكبر دليل على نبوة الهادي البشير محمد عليه صلوات الله وسلامه، هذا النبي الأمي الذي بعثه الله للإنسانية بشيراً ونذيراً، مبشراً بالسعادة والفوز للبشرية إن هي تركت جحودها وكفرها وعادت إلى عبادة الإله الواحد القادر العظيم وسارت على درب النور والهدى فوزاً بالدنيا السعيدة الآمنة وبالآخرة ونعيمها وجنتها.

ونذيراً لأولئك الغافلين المتدثرين بثوب المدنية المادية الزائف وخزعبلات الانبهار بها والغرق في وحولها، بأن لهم دنيا لن يستمتعوا بها إلا قليلاً، متعة ممزوجة بالقلق والتوتر والسعار الذي لا ينتهي، والنهم الذي لا يشبع لزائلات ما لهن دوام ثم سيواجهون مصيرهم المحتوم حين يلقون الإله العظيم العادل ـ حيث توفى كل نفس ما كسبت وحيث لا ظلم اليوم.

إن محمداً عليه صلوات الله وسلامه لم يأت برسالة تدفع بالبشرية إلى وهاد الحيوانية، بل جاء برسالة تؤصل للقيم الإنسانية والمبادئ والمثل العليا التي تتشدق بها النخب المتنطعة حول العالم، ولم يكن محمداً ذات يوم طالباً لمال أو لجاه أو ملك، بل كان صاحب رسالة ربانية كلفه بها

الواحد الأحد ليخرج البشرية من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد والتحرر من عبادة الحجر والبشر إلى عبادة هذا الإله العظيم الذي خلق هذا الكون ونظمه أروع وأبدع ما يكون النظام والاتساق والتوازن.

هذا هو محمد النبي الأمي الذي وقف على باب الكعبة الشريفة ليعلن للناس حريتهم وحرية بعد استعباد وعلمهم ونورهم بعد جهل، وجرم القتل حيث قال صلى الله عليه وسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ـ ألا وقتل الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة منها أربعون من بطونها أولادها».

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»، يا معشر قريش، أو يا أهل مكة، ما ترون إني فاعل بكم؟، قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال صلى الله عليه وسلم «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذا يبين خلق النبوة ورحمة الرسالة والمساواة بين البشر وتجريم القتل في أدنى مراتبه وهي مرتبة الخطأ قبل العمد.

وهذه خطبة له صلى الله عليه وسلم حيث يقول: «أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله تعالى قاض عليه فيه، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ومن دينه لآخرته ومن الشيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار».

هذا هو محمد رسول الله إلى البشرية وحامل هديه ورحمته إلى بني البشر كافة بكل أجناسهم وألوانهم وأعراقهم لا فرق بين غني وفقير وبين قوي وضعيف وبين أسود أو أبيض، الكل سواء والكل سواسية لا فرق بينهم ولا تمييز ولا تمايز إلا بالتقوى والعمل الصالح.

هذا هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي جسد التواضع والخلق الكريم والعدل والمساواة والرحمة في أجل صورها، وإن خطبته في الحيف كما روى زيد ابن ثابت تجسد وتصور ما يعانيه العالم الآن من سعار على الدنيا وبهارجها وفي نفس الوقت يرشد البشرية إلى علاج آلامها وابتغاء سعادتها فيقول صلى الله عليه وسلم: «نظر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها قرب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهم قلب المؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأولي الأمر، ولزوم الجماعة، إن دعوتهم تكون من ورائه ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له».

إن هذه الكلمات الشريفة شخصت بكل وضوح مشاكل العالم الآن ووضحت وبينت العلاج في نفس الوقت.

هذا العالم الذي توغل في عبادة المادة والقوة والتفكير الشرير المتواصل بالمصالح والمكاسب والمرابح دونما أي التفات إلى القيم الروحية العليا التي جاءت بها الأديان كلها، خاصة الإسلام كدين لم يتعرض كتابه (القرآن) إلى التحريف أو التبديل، كما سيق للكتب السماوية الأخرى والأديان السماوية الأخرى، وعلى أصحاب الديانات الأخرى وأولئك الدنيويين الملحدين أن يعيدوا النظر قبل فوات الأوان، وأظن ويظن معي الكثيرون أنه اقترب.

إن العالم كله وكوكب الأرض بما عليه يعاني من آلام ومخاطر هائلة تتهدد الإنسان الذي يعيش على هذا الكوكب وسائر الكائنات الحية، كالتخريب البيئي الناتج عن النهم الجنوني للمادة والغنى والرفاهية لجماعات صغيرة على حساب المليارات الأخرى من سكان الكوكب، إضافة إلى الأسلحة الفتاكة التي تدمر وتخرب وتشرد وأسلحة الفناء والدمار الشامل التي تقول التقارير العلمية الموثوقة، وضمن أبحاث لعلماء كبار في أميركا وروسيا إن استخدام ما مجموعه 5000 ميغاوات من القنابل النووية سوف يبيد الحياة على سطح الأرض، وسوف يحول الكرة الأرضية إلى أبشع كوكب يشيع فيه الخراب في هذا الكون، وللأسف هذا وارد جداً بموجب التوجه لإنتاج أسلحة نووية في كثير من بلاد العالم.

إن المخاطر الهائلة التي تتهدد البشرية والكرة الأرضية بمن عليها، بدأت إرهاصاتها في الظهور من خلال الجوع والفقر والمرض، الأمر الذي يثبت بكل جلاء أن كافة السياسات بكل أنواعها عجزت عن علاج هذه المخاطر بسبب النزوع المادي المخيف لهذه المدنية الحديثة التي تعذبت البشرية بنتاجها الذي لم يتغي أبداً سوى المال والشهوات التي لا تشبع ولا ترضي ولا سبيل لشبعها ورضاها، إنه سعار لا يتوقف ولن يتوقف إلا بما يلوح في الأفق من كوارث إذا لم يتم تداركها.

الوجه الآخر

من المفيد هنا أن نذكر بأن الإسلام وجهاً وقلباً، شكلاً ومضموناً، يقبل الآخر ويتناغم معه في الإطار الإنساني وفي كل ما يخدم مصالح الإنسانية ويتغي خيرها وسلامها، ولا يؤمن أو يؤصل للعدوان أياً كان شكله وسببه، والإرهاب والتطرف هما ألد أعداء الإسلام كشريعة وعقيدة تتغي أمن المجتمعات الإنسانية وسلامتها، لكن لابد من محاولة الوقوف والغوص قليلاً في أعماق هذا المشكل الإنساني العظيم والخلل الذي يعتور المجتمع الإنساني بأشكاله المختلفة، كما أسلفنا من جوع وفقر وقتل وظلم وخراب.

ونشير هنا إلى ما كتبه المفكر والفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي في مقدمة كتابه الذي يحمل عنوان «الولايات المتحدة.. طليعة الانهيار» حين تساءل: كما جاء في كتاب د.سعيد اللاوندي «القرن الحادي والعشرين هل يكون أميركياً؟».

ـ هل ثمة خيط رفيع يساعدنا في فهم العصر الذي نعيشه اليوم؟، وبمعنى آخر: هل هناك علاقة داخلية وعميقة بين كل المشكلات الدولية التي تتعلق بالتدخلات العسكرية وبدور البنك الدولي في العالم وأوروبا وماستريخت ومنظمة التجارة العالمية وإعادة إحياء الرأسمالية في شرق أوروبا والتطرف الإسلامي واليهودي والمسيحي ومشاكلنا المعاصرة كالبطالة والتهميش والهجرة والعنف والمخدرات.

إن جارودي يشير إلى المجاعة التي تنخر في عظام ثلاثة أرباع العالم ويؤكد أن الهجرة بأشكالها الراهنة هي الممر الذي يقودنا من عالم المجاعة إلى عالم البطالة لتصبح البطالة إلى جانب التهميش من أشد شرور الحياة المعاصرة لأننا، وهذا هو واقع الحال، نقتل أطفالنا بأيدينا ونتجه بالعالم ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين نحو الانتحار الكوني الشامل.

ثم يشير جارودي إلى أطروحة هنتنجتون بشأن صدام الحضارات على أنها حولت الإسلام في عيون الغربيين بعد انهيار النظام الشيوعي وتراجعه إلى الشيطان الذي يجب محاربته.

إن هذه الإشارات العدائية لقيم عظيمة لقيم الإسلام ونهجه المتوازن تحمل تساؤلات كبيرة وهامة عن مدى الالتزام بالقيم الإنسانية العليا في هذا العالم، كما تحمل تشويشاً في فكر المواطن الغربي الذي لم يفهم ولم يدرس الإسلام كنظرية جديدة لحياة البشر تحمل الدواء والعلاج الناجح لكل مشاكل البشرية، وذلك في شقه الدنيوي فقط.

وبالنظر إلى تاريخ هذه الأمة الإسلامية وباعتبارها أمة صنعت حضارة عظيمة بعد الإسلام وقبل ذلك، ولدت على أرضها أعظم الحضارات الإنسانية قاطبة وأكثرها تأثيراً في الحضارات الأخرى المحيطة بها، كما أنها كانت المهد ومهبط الرسالات السماوية كلها، والتي كلفت بنقلها ونشرها بين المجتمعات الإنسانية بأسرها، يبقى إنسانها وتبقى ثقافتها تحمل الامتنان لنتاج الحضارة الغربية العلمي في كافة المجالات بعد أن حملت إرث الفخر بدورها العظيم في تاريخ البشرية.

إن البشرية تضع يدها على قلبها خوفاً ورهباً من نتائج وآثار الإرهاب بكافة أشكاله وصوره والتطرف بكل أشكاله وصوره والخلل الاقتصادي والبيئي الذي يهدد بكوارث خطيرة تطال مستقبل البشرية بأسره، وهذا ما يرفضه الإسلام الصحيح والحقيقي الذي يدعو إلى العدالة والسلام والتسامح والتناغم مع الآخر، والذي يتغي المقاصد النبيلة العليا لسعادة البشر وحماية حياتهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم في الحياة الآمنة المستقرة في إطار من السلام العادل والحقيقي الذي لا يستثني منه بشر.

إننا نعلم ونفهم أن الله هو الذي سيحاسب الناس على إيمانهم وما تحمله قلوبهم، أما في الدنيا فعلينا أن ننبذ كل ما يهدد استقرار الإنسانية وسعادتها، وأن نتعايش فيما بيننا على أساس المصالح المشتركة وقيم العدل والحرية والمساواة.

نماذج من أقوال قادة غربيين (هكذا يقولون)

1 ـ وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا.

(لاكوش وزير المستعمرات الفرنسي)

2 ـ مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق.

(جلادستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً)

3 ـ إن أخشى ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمد جديد.

(بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل)

4 ـ لكننا وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته المدهشة.

(لورانس براون)

5 ـ لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق أي دين آخر.

(هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقاً)

6 ـ من يدري ربما يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الغرب مهددة بالمسلمين يهبطون إليها من السماء لغزو العالم مرة ثانية وفي الوقت المناسب.

(ألبير مشادور)

7 ـ إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيروا نظام العالم.

(سوسالازار)

8 ـ إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا، مباشراً وعنيفاً، هو الخطر الإسلامي، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون بأن يقيموا قواعد عالم جديد دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية، فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع، انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الثمين وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الحضارة الغربية ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ.

(مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية عام 1952)

9 ـ إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير.
(المبشر لورانس براون)

الخاتمة

في نهاية الأمر يجب على البشرية أن تفهم أننا في بلادنا الإسلامية عانينا أشد المعاناة من الإرهاب، هذا الإرهاب الذي نرفضه ولا يمت إلى ثقافتنا بصلة وليس من الإسلام أبداً ولا يقره دين الله الخاتم ولا نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

إن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث رحمة للعالمين ومبشراً بهدي شريعة ضمنت العدل والمساواة والرحمة لكل البشر وحضتهم على التعاون في كل ما فيه الخير للبشرية، ورفض كل ما فيه شر وإيذاء البشر. إنها شريعة محورها الرأسي هو العلاقة الإيمانية بين البشر والإله الواحد الأحد الخالق العظيم الذي نبه عباده إلى مخاطر الشيطان وأهدافه الخبيثة وعلى رأسها شقاء الناس والابتعاد عن جادة الهدى والتحول من عبادة الله الواحد إلى عبادة البشر والمادة والشهوات بكل شرورها ومأساويتها.

إن الإسلام ينظر إلى البشرية كلها على أنها مجتمع واحد متكامل وأن رسالة محمد موجهة إلى كل هؤلاء البشر، كما كانت رسالة موسى وعيسى، والإسلام دين لا يكتمل إيمان من يحمله إلا بالإيمان بكل هذه الرسالات وكتبها المقدسة وأنبيائها عليهم سلام الله.

إنها رسالة محمد الذي كلفه الله بنقلها إلى البشرية هدياً لها في ظلمات حياة أشقت البشرية وجعلت سعادتها وهماً وسراباً وتحريراً لها من عبودية الرغبات والمادية الزائلة بظلمها وظلامها.

وعلى الغرب أن يعيد النظر في الإسلام وأن يتمعن في مقاصده العظيمة وأن يحكم بإنصاف وأن ينحي النظرة العنصرية الحاقدة والمتشككة ويتعامل بتجرد مع نظرياته وتشريعاته لعله يجد ولسوف يجد العلاج الناجح لآلام البشرية وشقائها وتعاستها.

«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»

المراجـــع

1 ـ الحضارة ـ دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ـ د.حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، 237.
2 ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن على الحسني النروي، المركز العالمي للكتاب الإسلامي.
3 ـ سلسلة علماء العرب والمسلمين ـ تأليف أ.د.سمير عرابي، دار الكتاب الحديثة.
4 ـ الإسلام ما هو؟، مصطفى محمود، دار المعارف.
5 ـ الوجه الخفي لأحداث 11 سبتمبر ـ الجريمة الكاملة والمؤامرة المتقنة، إريك لوران، دار الخيال.
6 ـ 11 أيلول 2001، الخديعة المرعبة، لم تصطدم أي طائرة بمبنى البنتاغون، تيري ميسان، دار كنعان للدراسات والنشر.
7 ـ القرن الحادي والعشرون.. هل يكون أميركياً؟، د.سعيد اللاوندي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
8 ـ من ثمار الفكر ـ أثر البعثة المحمدية في الحضارة الإنسانية، أ.عمر بهاء الدين الأميري، الموسم الثقافي العاشر، جامعة قطر.
9 ـ روضة الروح، عبدالحميد كشك، المختار الإسلامي.